عبد اللَّه بن المقفّع

الأدب الصغير
و
الأدب الكبير

تصحيح
سمير رباب

الأدب الصغير

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن المقفع

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ لِكُلِّ مخلوقٍ حاجةً[١]، ولكلِّ حاجةٍ غايةً[٢]، ولكلِّ غايةٍ سبيلاً، واللَّهُ وَقَّتَ[٣] للأُمورِ أَقدارَها[٤]، وهيَّأَ إِلى الغاياتِ سُبُلَها، وسَبَّبَ الحاجاتِ ببلاغِها. فغايةُ الناسِ وحاجاتُهم صلاحُ الْمَعاشِ والْمَعادِ، والسَّبيلُ إلى دَرْكِها[٥] العقلُ الصحيح. وأَمارَةُ[٦] صِحَّةِ العقل اختيارُ الأُمورِ بالبَصَرِ، وتنفيذ البصرِ بالعزمِ. وللعقولِ سَجِيَّاتٌ[٧] وغرائِزُ بها تَقْبَلُ الأَدبَ، وبالأَدبِ تنمِي العقولُ وتَزْكو[٨]. فكما أَنَّ الحبَّةَ المدفونةَ في الأَرْض لا تَقْدِرُ على أَنْ تَخْلَعَ يُبْسَهَا وتُظْهِرَ قُوَّتَها، وتَطْلَع فوقَ الأَرْضِ بِزَهْرَتِها وَرَيْعِها

(١) الحاجة: الشيء المطلوب.
(٢) الغاية: ما يريد أن يحصل عليه الإنسان.
(٣) وقّت: حدّد الوقت أي الزمن.
(٤) أقدارها: جمع قَدَرْ وهو ما يسيّره اللَّه بإرادته، وقَدْر بمعنى القيمة.
(٥) الدّرْك: أدرك، الوصول إلى الحاجة.
(٦) الأمارة: الإشارة.
(٧) سجيات: جمع سجي، سجا العقل: طبعه وخلقه.
(٨) تزكو: زكا العقل: نما وزاد طيباً.

ونضرَتِها ونمائِها، إِلَّا بمَعُونة الماءِ الَّذي يَغُورُ[١] إليها في مُسْتَوْدَعِها، فيُذْهِبُ عنها أَذى الْيُبْسِ والموتِ، ويُحْدِثُ لها بإِذنِ اللَّهِ القوةَ والحياة، فكذلك سليقة[٢] العقلِ مكنونةٌ في مَغْرِزِها[٣] من القلبِ، لا قوةَ لها، ولا حياةَ بها، ولا منفعَةَ عندَها، حتى يَعْتَمِلَها[٤] الأَدبُ الذي هو نَماؤها، وحياتها ولقاحُها. وجلُّ الأَدبِ بالمنطقِ، وكلُّ المنطِقِ بالتعلُّم، ليس حرفٌ من حروف مُعْجَمِهِ، ولا اسمٌ من أنواع أسمائِه، إِلَّا وهُوَ مَرْوِيٌّ مُتَعَلَّمٌ، مأْخوذٌ عن إِمام سابق من كلام أو كتابٍ، وذلك دليلٌ عَلَى أَنَّ الناسَ لَمْ يَبْتَدِعُوا[٥] أُصولَها، ولم يَأْتِهِمْ عِلمُها إِلَّا من قِبَلِ العليمِ الحكيمِ.

فإِذْ خَرَجَ النَّاسُ من أَنْ يَكونَ لهم عملٌ، وَأَنْ يقولوا قولاً بديعاً، فَلْيَعْلَمِ الواصِفونَ الْمُخْبِرُونَ أنَّ أَحَدَهم ـ وإن أَحسنَ وأَبلَغَ ـ ليسَ زائداً على أَنْ يكونَ كصاحبِ فُصوصٍ وجدَ ياقُوتاً وزَبَرْجداً ومَرْجاناً، فَنَظَمَهُ قلائدَ[٦]

(١) يغور: غار، وصل الماء إلى الأسفل.
(٢) السليقة: الطبيعة.
(٣) مغرزها: غرز، المغرز: المكان الذي غرزت فيه أي أثبتت.
(٤) يعتملها: إعتمل، يعتملها: أي يجعلها تضطرب وتتحرك.
(٥) يبتدعوا: إبتدع: إخترع، صنّع.
(٦) الفصوص: جمع فصّ وهو حجر الخاتم. والقلائد جمع قلادة وهي العقد والحلية تعلق في العنق.

وسُمُوطاً[١] وأَكاليلَ[٢]، ووضع كلَّ فَصٍّ مَوْضِعَهُ، وجمعَ إلى كلِّ لونٍ شبَهَهُ، ما يَزِيدُهُ بِذلك حُسناً، فَسُمِّيَ بذلك صائغاً رفيقاً[٣]، وكصاغَةِ[٤] الذهبِ والفِضَّةِ صنعوا منها ما يُعْجِبُ الناسَ مِنَ الحُلِيِّ والآنِيَةِ. وكالنَّحلِ وَجَدَتْ ثمرَاتٍ أَخْرَجَهَا اللَّهُ طَيِّبَةً، وَسَلَكَتْ سُبُلاً جعلها اللَّهُ ذُلُلاً[٥]، فصار ذلك شِفاءً وطعاماً وشراباً منسوباً إليها، مذكوراً به أمرُها وصَنْعَتُها.

فَمَنْ جرى على لسانِهِ كلامٌ يَسْتَحْسنُهُ أو يُسْتَحْسَنُ منهُ فلا يُعْجَبَنَّ[٦] به إعجابَ المخترِعِ المبتَدِعِ، فإنه إنما اجتباه[٧] كما وصفْنا. ومَنْ أَخذ كلاماً حَسَناً عنْ غيرِه فتكلَّمَ به في موضِعِهِ على وَجهِهِ، فلا يُرَيَنَّ عليه في ذلك ضُؤُولة[٨]، فَإِنَّه مَنْ أُعِينَ

(١) السمط: هو العقد المنظوم، وهو من حلي العنق، طويل متدلٍّ.
(٢) الإكليل: من كلّل والإكليل: عصابة تزين بالجوهر تضعها المرأة على شعرها. وأما التاج فهو أعم وأشمل لأنه يوضع على الرأس كله، وهو خاص بالملوك، ولذلك يقولون: العمائم تيجان العرب.
(٣) الرفيق: رفق الشيء: أحسن عمله، والرفيق: ضد الأخرق الذي لا يحسن العمل والصنع.
(٤) صاغة: جمع صائغ.
(٥) ذلل: جمع ذلول، من ذلّل، والمعنى: جعلها اللّه سهلة لينة.
(٦) فلا يعجبن: من عجب فلا يترفع ولا يتكبر.
(٧) اجتباه: من جبا، اختاره.
(٨) ضؤولة: من ضَأُلَ: ضعف وصغر.

على حِفْظِ قولِ المصيبين، وهُدِيَ للاقتداءِ بالصالحين، ووُفِّقَ للأَخْذِ عَنِ الحكماءِ ـ ولا عليه أَن لا يزدادَ ـ فقدْ بلغَ الغايةَ. وليس بناقصِهِ في رأْيِهِ، ولا بِغَائِضِهِ[١] من حقِّهِ، أَنْ لا يَكونَ هو اسْتَحْدَثَ ذلك وسَبَقَ إليْهِ. وإِنَّما إحياءُ العقل الذي يَتِمُّ به ويَسْتَحْكِمُ خصالٌ سِتٌّ: الإِيثارُ بالمحَبَّةِ والمبالغةُ في الطلب، والتَّثَبُّتُ في الاختيارِ، والاعتقادُ للخَيرِ، وحُسْنُ الوعي، والتَّعَهُّدُ[٢] لما اخْتِيرَ واعتُقِدَ، وَوَضْعُ ذلك مَوْضِعَهُ قَوْلاً وَعمَلاً.

أَمَّا المحبّةُ، فَإِنَّمَا يَبْلُغُ المرءُ مَبْلَغَ الفضلِ في كلِّ شيءٍ مِنْ أَمر الدنيا والآخِرةِ، حينَ يُؤْثِرُ بمحَبَّتِهِ، فلا يكونُ شيءٌ أَمْرَأَ[٣] ولا أَحْلَى عِنْدَهُ منه.

وأَمَّا الطَّلبُ، فإنَّ النَّاسَ لا يُغْنِيهِمْ حبُّهم ما يُحبُّون، وهَواهُم ما يَهْوَوْنَ، عن طلبِهِ وابتغائِهِ، ولا يُدْرِكُ لهم بُغْيَتَهُمْ نَفَاسَتُها في أَنْفُسِهِمْ دونَ الجِدِّ والعملِ.

وأَمَّا التثبُّتُ والتخيُّرُ، فإنَّ الطلبَ لا يَنفع إِلَّا معَهُ وبه. فَكَمْ مِنْ طالبِ رُشْدٍ وَجَدَهُ والغَيَّ مَعاً، فاصْطَفى منهُما الذي

(١) بغائضه: بناقصه من قدره، غَضّ: نقص.
(٢) الوعي: من وعى، والوعي: الحفظ. والتعهد: التحفظ.
(٣) أمرأ: اسم تفضيل من مري الطعام، أي صار مرياً، هنيئاً طيباً.

منه هَربَ، وأَلْغى الذي إِليه سَعى[١]. فإِذا كانَ الطالبُ يَحْوِي غيرَ ما يُريدُ ـ وهو لا يَشُكُّ بالظَّفَرِ، فما أَحَقَّهُ بِشِدَّةِ التَبيُّنِ، وحُسْنِ الابْتغاء!

وأَمَّا اعتقادُ الشيءِ بعد استِبانَتِهِ، فهو ما يُطْلبُ من إِحرازِ الفضلِ بَعد معرفتِهِ.

وأَمَّا الحِفْظُ والتَّعَهُّدُ، فهو تَمامُ الدَّركِ، لأَنَّ الإِنسانَ مُوَكَّلٌ بهِ النِّسْيانُ والغَفْلَةُ. فلا بُدَّ لَهُ، إِذا اجْتَبى[٢] صوابَ قولٍ أَو فعلٍ، مِنْ أَنْ يَحْفَظَهُ عليه ذِهْنُهُ لأَوانِ حاجَتِهِ.

وَأَمَّا البصرُ بالموضِعِ، فإِنما تَصِيرُ المنافعُ كُلُّها إِلى وضع الأشياءِ مواضِعَها. وبنا إِلى هذا كلِّهِ حاجةٌ شديدةٌ. فإِنّنا لم نُوضَعْ في الدنيا موضعَ غَنَاءٍ وَخَفْض[٣]، ولَكنْ موْضِعَ فاقةٍ[٤] وكَدّ. ولسنا إِلى ما يُمْسِكُ بأرماقِنا[٥] من المَطْعَم والمشربِ بأَحوجَ منا إِلى ما يُثَبِّتُ عقولَنا من الأَدبِ الذي به تَفَاوُتُ العقولِ. وليس غذاءُ الطعامِ بأَسرعَ في نباتِ الجسد من غذاءِ

(١) سعى: أي اختار الغي الذي منه هرب، وألقى الرشد الذي إليه كان يسعى، وبسبب ذلك أنه لم يكن يتثبت.
(٢) اجتبى: اختار واصطفى وانتقى.
(٣) الخفض: السعة في العيش.
(٤) الفاقة: الفقر.
(٥) الأرماق: جمع رمق، بقية الحياة.

الأَدبِ في نباتِ العقلِ. ولسنا بالكدِّ في طلب المَتاعِ[١] الذي يُلْتَمَسُ به دفعُ الضُّرِّ والْعَيْلَة[٢] بأَحَقَّ منَّا بالكدِّ في طلب العلم الذي يُلْتَمَسُ به صَلاحُ الدِّينِ والدُّنيا.

وَقَدْ وضعتُ في هذا الكتابِ من كلامِ النَّاسِ المحفوظِ حروفاً، فيها عَوْنٌ على عِمَارَةِ القلوبِ وصقالِها[٣] وتجليةِ أبصارِها، وإحياءٌ للتفكيرِ، وإقامةٌ للتدبيرِ، ودليلٌ على محامد الأمورِ، ومكارمِ الأخلاقِ إِنْ شاءَ اللَّه!

الواصفونَ أكثرُ من العارفينَ، والعارفونَ أكثرُ من الفاعلين.

فَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ أين يضعُ نَفسَهُ، فإِنَّ لكلِّ امرئٍ لم تدخلْ عليه آفةٌ نصيباً من اللُّبِّ[٤] يعيشُ به لا يحِبُّ أَنَّ له به من الدنيا ثمناً. وليس كلُّ ذي نصيبٍ من اللبِّ بمُسْتَوْجِبٍ أَنْ يُسَمَّى في ذوي الأَلبابِ، ولا أَنْ يُوصَفَ بصفاتِهِمْ. فَمَنْ رام أنْ يجعلَ نفسَهُ لذلك الاسم والوصفِ أهلاً، فَلْيَأْخُذْ له عَتَادَهُ[٥]، ولْيُعِدَّ له طولَ أيامِهِ، ويُؤْثِرْهُ على أَهوائِهِ، فإِنَّهُ قد رامَ أمراً جسيماً لا

(١) المتاع: ما يتمتع به من الحوائج.
(٢) العيلة: الفقر.
(٣) صقالها: من صقل: جلا وملّس.
(٤) اللب: العقل، وجمعه ألباب، ولم يذكر القرآن إلا جمعه.
(٥) العتاد: العدة. وما يعد من السلاح للحرب.

يَصْلُحُ على الغَفْلَةِ، ولا يُدْرَكُ بالمَعْجَزَةِ، ولا يَصيرُ على الأَثَرَةِ[١]. وليس كسائرِ أُمورِ الدنيا وسلطانِها ومالِها وزينتِها التي قدْ يُدْرِكُ منها المُتَوَانِي ما يَفُوتُ المثابِرَ، ويُصيبُ منها العاجزُ ما يخْطِئُ الحازِمَ[٢].

وَلْيَعْلَمْ أَنّ على العاقِلِ أُموراً إِذا ضَيَّعَهَا حكمَ عليهِ عقلُهُ بمُقَارَنَةِ الجهَّالِ.

فعلى العاقل أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الناسَ مشتركونَ مُسْتَوُونَ في الحبِّ لما يوافِقُ، والبُغْضِ لما يؤذي، وأَنَّ هذه منزلةٌ اتفقَ عَليها الحَمْقَى والأَكْياسُ[٣]، ثم اختلفوا بَعْدَها في ثلاثِ خصالٍ، هُنَّ جِمَاعُ[٤] الصوابِ وجِمَاعُ الخطإِ. وعندَهُنَّ تفرقت العلماءُ والجهَّالُ، والحَزَمَةُ والعَجَزَةُ[٥].

الباب الأول

من ذلك: أَنَّ العاقلَ ينظُرُ فيما يُؤْذيهِ وفيما يَسُرُّهُ، فيعلمُ

(١) المَعْجزة: ألعجز. والأَثَرة: ترك المشورة، والاستبداد بالأمر.
(٢) المعنى: أن العاجز الضعيف قد يدرك من الدنيا ما لا يدركه الحازم.
(٣) الأكياس: جمع كيّس وهو الأريب العاقل المتّزن.
(٤) جماع الشيء: جمعه.
(٥) الحزمة: جمع حازم، وهو الضابط لأمره. والعجزة: جمع عاجز، وهو المقصّر الضعيف.

أنَّ أحقَّ ذلك بالطلب إنْ كان مما يُحَبُّ وأَحَقَّهُ بالاتِّقاء، إن كان مما يُكْرَهُ، أَطوَلُهُ وأَدْوَمُهُ وأبقاه. فإذا هو قد أبصر فضلَ الآخِرةِ على الدنيا، وفضلَ سرورِ المُروءَةِ على لذةِ الهوى، وفضلَ الرَّأيِ الجامعِ العامِّ الذي تَصْلُحُ بهِ الأنفُسُ والأَعقَابُ[١] على حاضرِ الرأيِ الذي يُسْتَمْتَعُ به قليلاً ثم يَضْمَحِلُّ، وفضلَ الأكَلاتِ على الأَكلةِ والساعاتِ على الساعة.

الباب الثاني

أَنْ يَنْظُرَ فيما يُؤْثَرُ من ذلك، فَيَضَعَ الرّجاءَ والخوفَ فيه موضعَهُ. فلا يجعلَ اتقاءَهُ لغيرِ المَخُوفِ، ولا رجاءَهُ في غَيرِ المُدْرَكِ، فَيَتْرُكَ عاجلَ اللذاتِ طلباً لآجلِها، ويحتملَ قريبَ الأَذى توقِّياً لبعيدِهِ، فإذا صارَ إلى العاقبةِ، بدا لهُ أَنَّ فِرَارَهُ كان تَوَرُّطاً[٢]، وأَنَّ طلَبهُ كان تَنكُّباً[٣].

الباب الثالث

هو تنفيذُ البصرِ بالعزمِ بعدَ المعرفةِ بفضلِ الذي هو أدومُ،

(١) الأعقاب: جمع العَقِبْ: ولد الولد.
(٢) التورّط: الوقوع في أمر شاق.
(٣) التنكّب: التجنّب والعدول عن منهج الصواب.

وبعدَ التثبُّتِ في مواضِعِ الرَّجاءِ والخوفِ، فإنَّ طالِبَ الفضلِ بغيرِ بصرٍ تَائهٌ حَيْرانُ، ومُبْصِرَ الفضل بغيرِ عزم ذو زَمَانة محرومٌ[١].

وعلى العاقلِ مخاصمةُ نفسِهِ ومحاسبتُها، والقضاءُ عليها وَالإِثابَةُ لها، والتنكيلُ بها.

أما المحاسبةُ، فيُحَاسبُها بمالِها، فإنَّهُ لا مالَ لها إلّا أَيامُها المعدودةُ التي ما ذهبَ منها لم يُسْتَخْلَفْ كما تُسْتَخْلفُ النَّفَقَةُ، وما جُعلَ منها في الباطلِ لم يَرْجِعْ إلى الحقِّ. فَيَتَنَبَّهُ لهذهِ المحاسبةِ عندَ الحولِ إذا حالَ، والشهرِ إذا انقضى، واليومِ إذا ولّى، فَيَنْظُرُ فيما أفنى من ذلك، وما كَسَبَ لِنفْسِهِ فيهِ، وما اكتسبَ عليها[٢] في أمر الدينِ وأمر الدنيا، فيجمعُ ذلك في كتابٍ فيهِ إِحصاءٌ وجِدٌّ[٣]، وتذكيرٌ وتَبْكيتٌ[٤] للنفسِ، وتذليلٌ لها، حتَّى تَعْترفَ وتُذعِنَ[٥].

(١) الزمانة: من زمِنَ الكساحة. ورجل زَمِنْ: أي مقعد كسيح.

(٢) يخص الكسب في عمل الخير. والاكتساب في عمل الشر. فتستعمل (اللام) في الأول. و(على) في الثاني. لأن (اللام) للخير و(على) للشر غالباً.

(٣) الجد: التحقيق.

(٤) التبكيت: التقريع والتعنيف.

(٥) تذعن: تخضع وتذل.

وأمَّا الخصومةُ، فإنّ من طباعِ النفسِ الأَمَّارةِ بالسُّوءِ أَنْ تَدَّعِيَ المعاذيرَ فيما مضى، والأَمَانِيَّ فيما بَقِيَ، فيرُدُّ عَليها معاذيرَها وعِلَلَها وَشُبُهَاتِهَا.

وأَمَّا القضاءُ، فإنَّهُ يَحْكُمُ فيما أَرادتْ مِن ذلك على السَّيِّئَةِ بأنّها فاضحةٌ مُرْدِيةٌ مُوبِقَةٌ[١]، وللحسنةِ بأَنَّها زائنةٌ مُنْجيَةٌ مُرْبِحَةٌ.

وَأمَّا الإثابةُ والتنكيلُ، فإنَّهُ يَسُرُّ نفسَهُ بِتذكُّر تلك الحسناتِ رجاءَ عواقِبها وتأْميلَ فضلِها، ويُعاقِبُ نفسَهُ بالتَّذكُّرِ للسيِّئاتِ، والبَشَعِ[٢] بها، والاقشعرارِ منها، والحزنِ لها.

فأَفضلُ ذَوي الأَلبابِ أَشَدُّهُمْ لِنفسِهِ بهذا أَخْذاً. وأَقَلُّهُم عنها فَتْرَةً.

وعلى العاقلِ أَنْ يذكرَ الموتَ في كلّ يوم وليلةٍ مِراراً، ذِكراً يباشرُ القلوبَ ويَقْذعُ[٣] الطِّماحَ، فإنَّ في كَثْرَةِ ذكرِ الموتِ عِصْمَةً مِنَ الأَشَرِ[٤]، وأَمَاناً ـ بإذن اللَّه ـ من الهَلَعِ.

وعلى العاقلِ أَنْ يُحْصِيَ على نفسِهِ مَسَاوِيَها في الدّينِ وفي

(١) مردية وموبقة: أي مهلكة.

(٢) يقال: بشع بالأمر إذا ضاق به ذرعاً.

(٣) يكفّ النفس ويمنعها.

(٤) الأشر: البطر.

الرأْيِ وفي الأَخلاقِ وفي الآدابِ، فيجمعَ ذلك كلَّهُ في صدرٍ أَو في كتابٍ، ثم يُكْثِرَ عَرْضَهُ على نفسِهِ، ويكلّفَها إِصلَاحهُ، ويُوَظّفَ ذلك عليها توظيفاً، من إصلاحِ الخَلَّةِ[١] أَو الْخَلَّتيْنِ والخلال، في اليومِ أَو الجمعةِ أَو الشَّهْرِ، فكلّما أَصلحَ شيئاً مَحَاهُ، وكلَّما نظرَ إلى مَحْوٍ استبشرَ، وكلَّما نظرَ إلى ثابتٍ اكْتَأَبَ.

وَعلى العاقل أَنْ يتفقَّدَ محاسنَ الناسِ ويحفَظَها ويُحْصِيَها، ويصنَعَ في توظيفِها على نفسِهِ وتَعهُّدِها بذلك مثلَ الذي وَصَفْنَا في إِصلاحِ المساوي.

وَعلى العاقلِ أَنْ يُخادنَ[٢] ولا يُصاحِبَ ولا يُجاوِرَ مِنَ النَّاسِ ـ ما استطاعَ ـ إِلَّا ذا فَضْلٍ في العِلمِ والدِّينِ والأخلاقِ فَيَأْخُذَ عنْهُ، أَوْ مُوافِقاً له على صَلَاحِ ذلك فَيُؤَيِّدَ ما عندَهُ، وإِنْ لم يَكُنْ له عليه فضلٌ؛ فإِنَّ الخصالَ الصالحةَ من الْبِرِّ[٣] لا تحيا ولا تَنْمِي إِلّا بالموافِقِينَ والمهذَّبين والمؤَيَّدينَ. وليسَ لذي الفضلِ قريبٌ ولا حميمٌ هو أقربُ إليهِ وأحبُّ مِمّنْ وافقَهُ على صالحِ الخصال فزادَهُ وثَبَّتَهُ.

---

(١) الخلّة: الخصلة.

(٢) يخادن: من خَدِنَ، يصادق، يصاحب.

(٣) البر: الخير والصدق والاتساع في الإحسان.

ولذلك زعَمَ بعضُ الأَوّلينَ أنَّ صُحْبَةَ بليدٍ نشأ معَ العلماءِ أحبُّ إِليهِمْ من صُحْبَةِ لبيب نشأَ مَعَ الْجُهَّال.

وَعلى العاقلِ أَنْ لا يحزنَ على شيءٍ فاتَهُ من الدُّنيا أو تولَّى، وأَنْ يُنْزِلَ ما أصابَ من ذلك، ثم انقطعَ عنهُ، مَنْزلَةَ ما لم يُصِبْ، وَيُنْزِلَ ما طَلَبَ من ذلك، ثم لم يُدْرِكْهُ، منزلَة ما لم يَطْلُبْ، ولا يَدَعَ حظَّهُ من السُّرورِ بما أقبلَ منها، ولا يبْلُغَنَّ ذلك شُكراً ولا طُغياناً؛ فإِنَّ مَعَ الشّكرِ النِّسيانَ، ومع الطُّغْيَانِ التَّهاوُنَ، ومَنْ نَسِيَ وَتَهاوَنَ خَسِرَ.

وعلى العاقلِ أَن يُؤْنِسَ ذَوِي الأَلبابِ بنفسِهِ ويُجَرِّأَهم عليها، حتَّى يَصِيروا حَرَساً على سَمْعِهِ وبَصَرِهِ ورأيِهِ، فَيَسْتَنِيمَ[1] إِلى ذلك ويُرِيحَ له قلبَهُ، ويَعْلَمَ أنَّهم لا يغفلونَ عنه إذا هو غَفلَ عَنْ نفسِهِ.

وعلى العاقلِ ـ ما لم يكنْ مغلوباً على نفسِهِ ـ أَنْ لا يَشْغَلَهُ شغلٌ عن أربعِ ساعات: ساعةٍ يرفعُ فيها حاجتَهُ إلى ربِّه، وساعةٍ يحاسبُ فيها نفسَه، وساعةٍ يُفْضِي فيها إلى إخوانِهِ وثِقَاته الذين يَصْدُقُونَهُ عن عيوبِهِ وينصحونَهُ في أمرِهِ، وساعة يُخَلِّي فيها بينَ نفسه وبينَ لذَّتها ما يَحِلُّ ويَجْمُلُ، فإن هذه

(١) فيستنيم: من استنام: فيطمئن.

الساعاتِ عونٌ على الساعاتِ الأُخَرِ، وإن استجمام[١] القلوبِ وتودِيعَها[٢] زيادةُ قوةٍ لها وفضلُ بُلغةٍ.

وعلى العاقلِ أن لا يكُون راغباً إلَّا في إحدى ثلاثِ خصالٍ: تَزَوُّدٌ لِمعَادٍ، أو مَرمَّةٌ[٣] لِمعَاشٍ[٤]، أو لَذَّةٌ في غيرِ مُحَرَّمٍ.

وعَلى العاقلِ أَنْ يجعلَ الناسَ طَبَقَتَيْنِ مُتَباينَتَيْنِ، ويَلْبسَ لهم لِباسينِ مُخْتَلِفَيْنِ. فَطَبَقَةٌ من العامّةِ يلبسُ لهم لباسَ انْقِبَاضٍ وانْحِجازٍ وتحفُّظٍ في كلّ كلمةٍ وخُطْوَةٍ، وطبقةٌ من الخاصّةِ، يخلعُ عندَهم لباسَ التشدُّدِ، ويلبسُ لباسَ الأَنَسَةِ واللُّطفِ والبِذْلَةِ والمفاوضةِ. ولا يدخُلُ في هذه الطَّبَقةِ إلّا واحدٌ من أَلفٍ كلُّهم ذو فضلٍ في الرأْي، وثقةٍ في المودّة، وأَمانةٍ في السرِّ، ووفاءٍ بالإخاءِ.

وَعَلَى العاقلِ أَنْ لا يستصغرَ شيئاً من الخطإِ في الرأْيِ، والزَّلَلِ في العلم، والإغفالِ في الأُمورِ، فإنّه مَنِ استصغرَ الصغيرَ أَوشكَ أَنْ يَجْمَعَ إِليه صغيراً وصغيراً، فإذا الصغيرُ

(١) استجمام القلوب: من أجَمَّ: إراحتها. يقال: أجم نفسك، أرحها. والجمام: الراحة.
(٢) التوديع: الترك. وهنا ترك القلوب تستقر وتطمئن.
(٣) مرمّة: من رمّ بمعنى زاد. إعطاء الشيء برمّته أي بجملته.
(٤) ما يكفي الإنسان في معاشه.

كبيرٌ. وإنما هي ثُلَمٌ[١] يَثْلِمُها العجزُ والتضييعُ، فإذا لم تُسَدَّ أَوشكتْ أن تَنْفَجِرَ بما لا يُطاقُ. ولم نَرَ شيئاً قَطُّ قد أُتِيَ إلّا مِنْ قِبَلِ الصَّغيرِ المُتَهاوَنِ بهِ: قد رأَينا المُلْكَ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ العدوِّ المحتَقَرِ، ورأَينا الحصَّةَ تُؤْتَى من الدّاءِ الذي لا يُحْفَلُ بِهِ، ورأَينا الأَنهارَ تنبثقُ من الجدولِ الَّذي يُسْتَخَفُّ به.

وأَقلُّ الأُمورِ احتمالاً للضَّياعِ المُلْكُ، لأَنّه ليس شيءٌ يضِيعُ، ـ وإِنْ كان صغيراً ـ إلا اتّصلَ بآخَر يَكون عظيماً.

وعلى العاقلِ أَنْ يَجْبُنَ عنِ الرأيِ الذي لا يجدُ عليه مُوَافِقاً، وإِنْ ظنّ أَنَّهُ على اليقين.

وعلى العاقلِ أَنْ يعرِفَ أَنَّ الرأيَ والهوى متعاديان، وأَنَّ مِنْ شأْنِ الناسِ تسويف الرأي وإسعاف الهوى، فَيُخَالِفَ ذلك ويَلْتَمِسَ أَنْ لَا يَزَالَ هواهُ مُسَوَّفاً ورأيُهُ مُسْعَفاً.

وعلى العَاقلِ إذا اشتَبَهَ عليهِ أَمرانِ فَلَمْ يَدْرِ في أيّهما الصَّوابُ أَنْ ينظرَ أهواهُما عندَهُ فَيَحْذَرَهُ.

وَمَنْ نَصَبَ نفسَهُ للنَّاسِ إماماً في الدِّينِ فعليهِ أنْ يَبْدأَ بتعليمِ نفسِهِ وتقويمها في السيرةِ والطُّعْمَةِ[٢] والرأيِ واللّفظِ والأَخذَانِ، فيكونَ تعليمُهُ بسيرتِهِ أبلغَ من تعليمِهِ بلسانِهِ. فإِنَّهُ

(١) ثلم: جمع ثلمة، وهي الخلل في الحائط وغيره.
(٢) أي وجه المكسب. يقال: فلان عفيف الطعمة. أي نقي المكسب.

كما أَنَّ كلامَ الحِكمةِ يُرْفِقُ الأسماعَ[١] فكذلك عملُ الحكمةِ يَرُوقُ العيونَ والقلوبَ. ومُعَلِّمُ نفسِهِ ومُؤَدِّبُها أَحَقُّ بالإِجلالِ والتفضيلِ من مُعَلِّمِ النَّاسِ ومُؤدِّبِهِمْ.

وِلايةُ النَّاسِ بلاءٌ عظيمٌ. وعلى الوالي أَربعُ خِصال هي أَعْمِدَةُ السُّلْطانِ وأركانُهُ التي بها يقُومُ وعليها يَثْبُتُ: الاجتهادُ في التَّخَيُّرِ، والمبالغةُ في التقدُّمِ، والتعهُّدُ[٢] الشديدُ، والجزاءُ العتيدُ[٣].

أَمَّا التخَيُّرُ للعمالِ والوزراءِ فإنّهُ نِظامُ الأمرِ وَوَضْع مَؤُونَةِ البعيدِ المنتشِرِ: فإِنَّهُ عسى أَنْ يكونَ بِتَخَيُّرِهِ رجلاً واحداً قدِ اختارَ أَلْفاً، لأَنَّهُ من كان من العمالِ خِياراً فَسَيَخْتَارُ كما اخْتِيرَ، ولعلَّ عمالَ العاملِ وعُمَّالَ عُمَّالِهِ يَبْلُغُونَ عَدَداً كَثِيراً. فَمَنْ تَبَيَّنَ التخيُّرَ فقد أَخَذَ بسببٍ وثيقٍ، ومن أسّسَ أمرَهُ على غيرِ ذلك لم تجد لِبُنْيَانِهِ قِوَاماً[٤].

وأمّا التَّقديمُ والتَّوكيلُ، فإنّهُ ليس كلُّ ذي لُبٍّ أوْ ذي أَمانَةٍ يعرِفُ وجوهَ الأمورِ والأعمالِ، ولو كانَ بذلكَ عارِفاً، لم

(١) يرفق الأسماع: من رفق، يعجبها.
(٢) التعهد: التفقد والتحفظ.
(٣) العتيد: الحاضر المهيأ.
(٤) قوام البناء: البنيان المستقيم.

يكُنْ صاحبُهُ حقيقاً أَنْ يَكِلَ ذلك إلى علمِهِ دونَ توقيفِهِ عليه، وتَبْيِينِهِ له، والاحتِجَاجِ به عليه.

وأَمّا التَّعَهُّدُ، فإنَّ الواليَ إذا فعلَ ذلكَ كان سميعاً بصيراً، وإنّ العاملَ إذا فُعِلَ ذلك به كان مُتَحَصِّناً حَريزاً.

وأَمّا الجزاءُ، فإنّه تثبيتُ المُحْسِنِ والرَّاحَةُ مِنَ المُسِيءِ.

لا يُسْتَطاعُ السلطانُ إلّا بالوزراءِ والأَعوانِ، ولا ينفعُ الوزراءُ إلّا بالمودّةِ والنَّصيحةِ، ولا المودةُ إلّا مَع الرأْيِ والعَفَافِ.

وأَعمالُ السُّلطانِ كثيرةٌ، وَقَلَّما تُسْتَجْمَعُ الخصالُ المحمودةُ عندَ أَحَدٍ، وإنَّما الوجهُ في ذلك والسبيلُ إليه الذي يستقيمُ بِهِ العملُ أَنْ يكونَ صاحبُ السُّلطانِ عالماً بِأمورِ مَنْ يُريدُ الاستعانةَ بهِ، وما[1] عندَ كلِّ رجل من الرأْيِ والغَناءِ[2]، وما فيهِ من العيوبِ، فإذا استقرَّ ذلك عندَهُ عن علمِهِ وعلم مَنْ يَأْتَمِنُ، وَجَّهَ لكلِّ عمل مَنْ قد عَرَفَ أَنَّ عندَهُ مِنَ الرأْيِ والنَّجدةِ[3] والأمانةِ ما يحتاجُ إليهِ فيهِ، وأَنَّ ما فيهِ من العُيوبِ لا يُضِرُّ بذلك. ويَتَحَفَّظُ من أَنْ يُوَجِّهَ أَحداً وَجْهاً لا يحتاجُ فيهِ

(١) ما: اسم موصول مبني على السكون في محل الجر عطفاً على (أمور).
(٢) الغناء: النفع.
(٣) النجدة: الشجاعة.

إِلى مُروءَةٍ ـ إِنْ كَانَتْ عندَهُ ـ ولا يأْمَنُ عيوبَهُ وما يُكْرَهُ مِنْهُ.

ثُمَّ على الملوكِ، بعدَ ذلك، تَعَهُّدُ عُمَّالِهِمْ وتَفَقُّد أُمورهم، حتَّى لا يَخْفَى عَلَيْهِمْ إحسانُ مُحْسِنٍ ولَا إِساءَةُ مُسِيءٍ.

ثُمَّ عليهِمْ بعدَ ذلِكَ أنْ لا يَتْرُكُوا مُحْسِناً بغيرِ جَزَاءٍ، ولا يُقرُّوا مُسيئاً ولا عاجِزاً على الإِساءَةِ والعجْزِ، فإنَّهم إِنْ تَرَكُوا ذلك تهاون المحسنُ، واجتَرَأَ المسيءُ، وفَسَدَ الأَمرُ، وضاعَ العملُ.

اقتصادُ السَّعْيِ أَبْقَى لِلْجَمَام[1]. وفي بُعْد الهمَّةِ يكونُ النَّصَبُ[2]. وَمَنْ سأَلَ فوقَ قدرتِهِ استحقّ الْحِرمان.

وسوء حمل الغنى أَنْ يكونَ عندَ الفرحِ مَرَحاً وسُوءُ حملِ الفاقةِ أَنْ يكونَ عندَ الطَّلبِ شَرَهاً. وعارُ الفقرِ أَهْوَنُ مِنْ عارِ الغِنى. والحاجةُ مَعَ المحبةِ خيرٌ مِنَ الغِنَى مَعَ البِغْضَةِ[3].

والدُّنيا دُوَلٌ، فما كانَ منها لك أتاك على ضَعْفِكَ، وما كان عليكَ لم تَدْفَعْهُ بقوَّتِكَ.

إِذا جُعِلَ الكلامُ مَثَلاً كانَ ذلك أَوضحَ للمنطقِ وأَبينَ[4] في

(١) الجمام: الراحة.
(٢) النصب: التعب.
(٣) البغضة: كالبغضاء، شدة البغض. الكراهية.
(٤) أبين: من بان، وأبين: وأظهر.

المعنى، وآنقَ[١] للسَّمْعِ، وأوسعَ لِشُعُوبِ الحديث[٢].

أَشَدُّ الفائِقَةِ[٣] عدمُ العقل. وأَشَدُّ الوَحْدَةِ وَحْدَة اللَّجُوجِ[٤]. ولا مالَ أَفضلُ مِنَ العقلِ. ولا أُنْسَ آنَسُ من الاسْتِشَارَةِ.

مِمَّا يُعْتَبَرُ بِهِ صَلَاحُ الصَّالِحِ وحُسْنُ نَظَرِهِ للنَّاسِ أَنْ يكونَ إذا اسْتَعْتَبَ[٥] المُذْنِبُ سَتُوراً[٦] لا يُشِيعُ، وإذا استُشِيرَ سَمْحاً بالنَّصيحةِ مُجْتَهِداً للرأْيِ، وإذا استشارَ مُطَّرِحاً للحياءِ ومُعْتَرِفاً للحقِّ.

أَلقَسْمُ[٧] الذي يُقْسَم للناسِ ويُمَتَّعُونَ به نَحْوَانِ[٨]: فَمِنْهُ حارسٌ ومِنْهُ مَحْرُوسٌ. فالحارِسُ العقلُ، والمحروسُ المالُ. والعقلُ ـ بإذنِ اللَّه ـ هُو الذي يُحْرِزُ الحظَّ، ويُؤْنِسُ الغُرْبَةَ، وَيَنْفِي الفاقَةَ، ويُعَرِّفُ النَّكِرَةَ، ويُثَمِّرُ المَكْسِبَةَ، ويُطَيِّبُ

(١) آنق: أحسن وأعجب.
(٢) شعوب الحديث: أقسامه وشجونه وفنونه.
(٣) الفاقة: الفقر والحاجة.
(٤) اللجوج؛ من لجّ، المخاصم الذي يتمادى في الخصومة.
(٥) استعتب المذنب: من عتب، استرضى.
(٦) ستوراً: من ستر، الغطاء. وهي هنا خبر يكون منصوباً.
(٧) أي العطاء أو الرزق؛ ولا يستعمل إلا مفرداً فلا جمع له.
(٨) النحو: القصد والجهة والطريق.

الثمرةَ، ويُوَجِّهُ السُّوقَةَ، عندَ السُّلطانِ، ويَسْتَنْزِلُ السُّلْطَانَ لنصيحةِ السُّوقَةِ[١]، ويُكْسِبُ الصَّديقَ، ويَكْفِي العدوَّ.

كلامُ اللبيبِ ـ وإِنْ كانَ نَزْراً[٢] ـ أَدَبٌ عظيمٌ. ومُقَارَفَةُ المَأْثَمِ[٣] ـ وإِنْ كانَ مُحْتَقراً ـ مُصيبةٌ جليلةٌ. ولقاءُ الإِخوانِ ـ وإِنْ كانَ يَسيراً ـ غُنْمٌ حَسَنٌ.

قَدْ يَسْعَى إِلى أَبوابِ السُّلطانِ أَجناسٌ مِنَ الناسِ كثيرٌ: أَمَّا الصَّالحُ فَمَدْعُوٌّ، وأَمَّا الطَّالِحُ فَمُقْتَحِمٌ، وأَمَّا ذُو الأَدَبِ فطالبٌ، وأَمَّا مَنْ لا أَدبَ له فمُحْتَبَسٌ[٤]، وأَمَّا القويُّ فمُدافِعٌ، وأَمَّا الضعيفُ فمدفوعٌ، وأمَّا المُحْسِنُ فَمُسْتَثِيبٌ، وأَمَّا المُسيءُ فَمُسْتَجِيرٌ: فهو مَجْمَعُ الْبَرِّ والفاجِرِ، والعالمِ والجاهلِ، والشَّريفِ والوضيعِ.

ألنَّاسِ ـ إِلّا قليلاً مِمَّنْ عَصَمَ اللَّهُ ـ مَدْخُولونَ في أُمورِهِمْ: فقائِلُهم بَاغٍ[٥]، وسامعهم عيَّابٌ[٦]، وسائِلُهمْ

(١) السوقة: خلاف الملك والأسرة المالكة، العامة من الناس، يطلق على الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث.
(٢) النزر: القليل.
(٣) مقارفة المأثم: مخالطة الذنب.
(٤) المحتبس: من حبس، الممنوع من الدخول.
(٥) باغ: من بغى، معتد، ظالم.
(٦) عياب: من عاب، كثير العيب للناس.

متعنّتٌ، ومُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، وواعِظُهُمْ غيرُ مُحقِّقٍ لقولِهِ بالفِعْلِ، ومَوْعُوظُهُم غيرُ سليمٍ من الاسْتِخْفَافِ، والأمينُ منهم غيرُ مُتَحَفِّظٍ من إتيان الخيانةِ. ذو الصِّدْقِ غير مُحتَرِسٍ من حديثِ الكَذَبَةِ، وذو الدِّينِ غيرُ مُتَوَرِّعٍ عن تَفْريطِ الْفَجَرَةِ، والحازِمُ منهم غيرُ ذاكرٍ لِتَوَقعِ الدَوائِرِ.

يَتَنَاقَضُونَ[١] البِنَاءَ، ويترقَّبون الدُّول[٢]، وَيَتعَاطَوْنَ الْقَبيحَ، ويَتعاينون[٣] بالغَمْزِ. مولَعُونَ في الرَّخاءِ بالتَّحاسُدِ وفي الشِّدَّةِ بالتَّخاذُلِ.

ثُمَّ قَدِ انْتُزِعَتِ الدُّنيا ممِّنْ قد اسْتَمْكَنَ منها واعْتَكَفَتْ لَهُ، فأَصْبَحَتِ الأعمالُ أَعمالَهمْ، والدنيا دنيا غيرِهِم، وأَخَذَ مَتَاعَهُمْ مَنْ لَمْ يَحْمَدْهُمْ وخَرجوا إلى مَنْ لا يعذِرْهُمْ. فأَصبحْنَا خَلَفاً مِنْ بعدِهِمْ، نَتَوَقَّعُ مِثْلَ الّذي نَزَلَ بِهِمْ. فنحنُ إذا تَدَبَّرْنَا أُمورَهُمْ أَحِقَّاءُ أَنْ نَنْتظرَ ما نَغْبِطُهُمْ به فَنَتَّبِعَهُ، وما نخافُ عليهِمْ مِنْهُ فَنَجْتَنِبَهُ.

كانَ يُقالُ: إِنَّ اللَّه تَعَالى قَدْ يَأْمُرُ بالشَّيءِ وَيَبْتَلِي بِثِقَلِهِ، وَيَنْهَى عنِ الشيءِ وَيَبْتَلِي بشهوتِهِ. فإذا كنتَ لا تعْمَلَ من

(١) يتناقضون: من نقض، كل واحد ينقض بناء الآخر أي يهدمه.
(٢) يترقبون الدول: من راقب، ينتظرون انقلاب الزمان ليشمت بعضهم ببعض.
(٣) يتعاينون: من عان، ينظر الواحد إلى الآخر نظرة لؤم.

الخيرِ إلّا ما اشْتَهَيْتَ، ولا تتركُ مِن الشَّرِ إلا ما كَرِهْتَ، فقد أَطْلَعْتَ الشَّيطانَ على عَوْرَتِكَ، وأَمْكَنْتَهُ مِنْ أَزِمَّتِكَ[١]، فَأْوشكَ أَنْ يَقْتَحِمَ عليكَ فيما تُحِبُّ مِنَ الْخَيْرِ فَيُكَرِّهَهُ إِليكَ، وفيما تَكْرَهُهُ من الشَّرِّ فَيُحَبِّبَهُ إِليك. ولكنْ يَنْبَغِي لكَ في حبِّ ما تُحِبُّ من الخير التحامُلُ على ما يُسْتَثْقَلُ مِنْهُ، ويَنْبَغِي لكَ في كَرَاهَةِ ما تَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ التَّجَنُّبُ لِمَا يُحَبُّ مِنْهُ.

للدُّنيا زُخْرُفٌ يَغْلِبُ الجوارِحَ مَا لَم تَغْلِبْهُ الألبابُ، والحكيمُ مَنْ لم يَغُضَّ عليه طرفَهُ، ولم يشْغَلْ بهِ قَلبَهُ. اطَّلَعَ من أدْناهُ فِيما وراءَهُ، وذَكَرَ في بَدْئِهِ لواحقَ شَرِّهِ، فأَكل مُرَّهُ وشربَ كَدَرَهُ، لِيَحْلَولِيَ له ويَصْفُوَ في طُولٍ من إِقامةِ العَيشِ الذي يَبْقَى ويدُوم، غيرَ عائِفٍ للرُّشْد إِنْ لم يَلْقَهُ برِضَاهُ، ولم يأْتِهِ مِنْ طريقِ هَواهُ.

لا تأْلَفِ المُسْتَوْخَمَ[٢]، ولا تُقِمْ على غَيْرِ الثِقَةِ.

قَدْ بَلَغَ فَضلُ اللَّهِ عَلى النَّاسِ من السَّعَةِ، وبلغتْ نِعْمَتُهُ عَليهِمْ مِنَ السُّبوغِ[٣]، ما لَوْ أَنَّ أَخَسَّهُمْ[٤] حَظَّاً، وأَقَلَّهُمْ منهُ

(١) أزمة: جمع زمام وهو المقود. والفعل زمّ.
(٢) المستوخم: من وخم، استثقله ووجده وخيماً.
(٣) السبوغ: من سبغ، الرّغد في العيش.
(٤) أخسّهم: من خسّ، أرذلهم.

نَصِيباً، وأَضْعَفَهُمْ عِلْماً وأَعْجَزَهُمْ عَمَلاً، وأَعْيَاهُمْ لِساناً، بَلَغَ مِنَ الشُّكْرِ لَهُ والثَّنَاءِ عليه بما خَلَصَ إِليه مِنْ فضلِهِ ووَصَلَ إِليهِ مِن نِعْمَتهِ ما بَلغَ لَهُ مِنْهُ أَعْظَمُهُمْ حَظاً وأوفرُهُمْ نَصِيباً، وأفضلُهُمْ عِلماً، وأَقواهُم عَملاً، وأَبْسَطُهُمْ لِساناً، لَكَانَ عَمَّا اسْتَوْجَبَ اللَّهُ عليه مُقَصِّراً، وعن بلوغِ غَايةِ الشُّكرِ بَعِيداً. وَمَنْ أَخذَ بحظِّهِ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ وحمده، ومَعْرِفَةِ نِعَمِهِ والثَّناءِ عليهِ، والتَّحْمِيدِ لَهُ، فقدِ اسْتَوْجَبَ بذلك مِنْ أَدائِهِ إِلى اللَّهِ، والقُرْبَةِ عِنْدَهُ، والوسيلةِ إليهِ، والْمَزِيدِ فيما شَكَرَهُ عليهِ، من خَيْرِ الدُّنيا وحُسْنِ ثوابِ الآخِرَةِ.

أَفضَلُ ما يُعْلَمُ بهِ عِلْمُ ذي العلم وصلاحُ ذي الصَّلاحِ، أَنْ يَسْتَصْلِحَ بما أُوتِيَ مِنْ ذلك مَنِ استطاعَ مِنَ النَّاسِ ويُرَغِّبَهُمْ فيما رَغِبَ فيهِ لنفسِهِ مِنْ حُبِّ اللَّه، وحبِّ حكمتِهِ، والعملِ بطاعتِهِ، والرَّجاءِ لحسنِ ثوابِهِ في المعاد[1] إليه، وأَنْ يُبَيّنَ لهم مِنَ الأَخْذِ بذلكَ، والذي عليهِمْ في تَرْكِهِ، وأَنْ يُوَرِّثَ ذلكَ أَهْلَهُ وَمَعَارِفَهُ، لِيَلْحَقَهُ أَجْرُهُ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ.

الدِّينُ أَفضلُ المواهبِ الّتِي وَصَلَتْ مِنَ اللَّهِ تعالى إلى خَلْقِهِ، وأَعْظَمُهَا مَنْفَعَةً، وأَحْمَدُهَا في كلِّ حِكْمَةٍ؛ فَقَدْ بلغَ

(١) المعاد: من عاد، الرجوع إلى اللّه يوم القيامة.

فَضْلُ الدِّينِ والحِكْمَةِ أَنْ مُدِحا عَلَى أَلْسِنةِ الجهَّالِ على جَهَالتِهِمْ بهما، وَعَماهُمْ عَنْهُما.

أَحَقُّ النَّاسِ بالسُّلْطانِ أهلُ الرَّأْفةِ، وأَحقُّهُمْ بالتّدبيرِ العلماءُ، وأحقُّهُمْ بالْفَضْلِ أَعْوَدُهُمْ عَلى النَّاسِ بِفَضْلِهِ وأَحَقُّهُمْ بالعلم أَحْسَنُهُمْ تأْديباً. وأحقُّهم بالغنى أهلُ الجُودِ، وأقربُهُمْ من اللَّهِ أنفَذُهمْ في الحَقِّ عِلْماً وأكمَلُهُمْ بِهِ عَمَلاً. وأَحْكَمُهُمْ أَبْعَدُهُمْ مِنَ الشَّكّ في اللَّهِ. وأَصْوَبُهُمْ رجاءً أوثَقُهُمْ باللَّهِ. وأَشَدُّهُمْ انْتِفَاعاً بعلمِهِ أَبْعَدُهم مِنَ الأَذى. وأَرْضَاهُمْ للشَّهوةِ في النَّاسِ أفشاهُم مَعْروفاً. وأقواهُمْ أَحْسَنُهُمْ مَعُونةً. وأَشْجَعُهُمْ أَشَدُّهُمْ على الشَّيطانِ. وأَفْلَحُهُمْ بالحُجَّةِ أَغْلَبُهُمْ للشّهْوةِ والْحِرْصِ. وآخَذُهُمْ بالرَّأْيِ أَتْرَكُهُمْ لِلْهَوى. وأَحَقُّهُمْ بالمودَّةِ أَشَدُّهُمْ لنفسِهِ حياءً. وأَجْوَدُهُمْ أَصْوَبُهُمْ بالعَطِيَّةِ مَوْضِعاً. وأَطْوَلُهُمْ راحةً أَحْسَنُهُمْ للأُمور احتمالاً، وَأَقلُّهم دَهَشاً أَرْحَبُهُمْ ذَرْعاً. وأَوْسَعُهُمْ غِنىً أَقْنَعُهُمْ بما أوتِيَ. وأَخْفَضُهُمْ عَيْشاً أَبْعَدُهُمْ مِنَ الإفراطِ. وأَظْهَرُهُمْ جَمالاً أَظْهَرُهُمْ حَصَافَةً. وآمَنُهُمْ في النَّاسِ أكَلُّهُمْ[1] نَاباً ومِخْلَباً. وأَثْبَتُهُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ أَنْطَقُهُمْ عَنْهُمْ. وأَعْدَلُهُمْ فيهِمْ أَدْوَمُهُمْ مُسَالَمَةً لَهُمْ. وأَحَقُّهُمْ بالنِّعَمِ أَشكَرُهُمْ لِمَا أُوتِيَ مِنْهَا.

(١) أكلّهم: من كلّ، أضعفهم.

أَفْضَلُ ما يُورِّثُ الآباءُ الأبناءَ الثناءُ الحَسَنُ، والأَدَبُ النَّافِعُ، والإِخوانُ الصَّالحونَ.

فَصْلُ ما بينَ الدِّينِ والرأْيِ أَنَّ الدِّينَ يَسْلَمُ بالإِيمانِ، وأَنَّ الرأْيَ يَثْبُتُ بالخصومةِ، فَمَنْ جَعَل الدِّينَ خُصُومةً فقد جَعَلَ الدِّينَ رأْياً، وَمَنْ جَعَلَ الرأْيَ ديناً فقد صار شارعاً[١]، ومَنْ كانَ هو يَشْرَعُ لنفْسِهِ الدِّينَ فَلَا دِينَ لَهُ.

قَدْ يَشْتَبِهُ الدِّينُ والرأْيُ في أَمَاكِنَ لولا تَشَابُههما لم يحْتاجا إِلى الفَصْلِ.

العُجْبُ آفةُ العقلِ، واللَّجاجَةُ قَعُودُ الهوى، والبُخْلُ لَقَاحُ الحِرْصِ، والمراءُ[٢] فسادُ اللِّسانِ، والحَمِيَّةُ[٣] سببُ الجهلِ، والأَنَفُ[٤] تَوْأَمُ السَّفَهِ، والمنافَسَةُ أُخْتُ العَداوةِ.

إِذا هَمَمْتَ بخيرٍ فبادِرْ هواك لا يَغْلبكَ، وإذا هممتَ بشرٍّ فَسَوِّفْ هواكَ لَعَلَّكَ تَظْفَرُ، فإِنَّ ما مَضى مِنَ الأَيامِ والسَّاعاتِ على ذلكَ هو الْغُنْمُ.

لا يَمْنَعَنَّكَ صِغَرُ شَأْنِ امرئٍ من اجْتباءِ[٥] ما رأَيتَ مِنْ رأيِهِ

(١) شارعاً: من شرع: سنّ.
(٢) المراء: المخاصمة والمجادلة، ومنازعة غيرنا فيما يدّعي صوابه.
(٣) الحمية: من حمى، الأنفة، الإباء.
(٤) الأنف: من أنف، التّرفع والتّكبر، عزة النفس.
(٥) اجتباء: من إحتب، مجاراة.

صَوَاباً، واصطفاءِ ما رأيتَ مِنْ أخلاقِهِ كريماً؛ فإِنَّ اللؤلؤةَ الفاقةَ لا تُهَانُ لِهَوَان غائِصِها الَّذي اسْتَخْرَجَها.

من أبوابِ التَّرفقِ والتَّوفيقِ في التَّعليمِ أَنْ يكونَ وجهُ الرَّجلِ الَّذي يَتَوَجَّهُ فِيهِ من العلمِ والأدبِ فيما يُوافِقُ طاعةً ويكونُ له عندَهُ مَحْمَلٌ وقَبولٌ، فلا يَذهَبُ عَنَاؤُهُ في غيرِ غَناءٍ، ولا تَفْنى أيَّامُهُ في غيرِ دَرَكٍ، ولا يَسْتَفْرِغُ نَصِيبَهُ فيما لا يَنْجَعُ فيهِ، ولا يكونُ كَرَجُل أَرادَ أَنْ يَعْمُرَ أَرْضاً تَهَمَةً[1]، فَغَرَسَها جَوْزاً وَلَوْزاً، وأَرْضاً جَلْساً[2] فَغَرَسَهَا نَخْلاً ومَوْزاً.

العِلْمُ زَيْنٌ لصاحبِهِ في الرَّخاءِ، ومَنْجَاةٌ له في الشِّدَّةِ. بالأَدبِ تَعْمُرُ القلوبُ، وبالعِلمِ تَسْتَحْكِمُ الأحلامُ. العقلُ الزّاكي غيرُ الصَّنِيعِ كالأَرضِ الطَّيِّبَةِ الخراب.

* * *

مِمَّا يَدُلُّ على معرفَةِ اللَّهِ وهو سببُ الإِيمان، أَنْ وَكَلَ بالغَيْبِ لِكُلِّ ظاهرٍ من الدُّنيا. صغيرٍ أَوْ كبيرٍ، عَيْناً: فَهُوَ يُصَرِّفُهُ ويُحَرِّكُهُ. فَمَنْ كانَ مُعْتَبِراً بالجليلِ مِنْ ذلك فَلْيَنْظُرْ إِلى السَّماءِ فَيَعْلَم أَنَّ لها رَبّاً يُجْري فلكَها، ويُدَبِّرُ أَمْرَها، وَمَنِ اعْتَبَرَ بالصّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلى حَبَّةِ الْخَرْدَلِ فَيَعْرِفَ أَنّ لَها مُدَبِّراً

(١) التهمة: من تهم، الأرض المتصوبة إلى البحر. خبث الرائحة، النتانة.
(٢) الجلس: من جلس، الأرض الغليظة، وما ارتفع عن النور.

يُنْبِتُهَا ويُزْكِيها ويُقَدِّرُ لها أَقواتَها مِنَ الأَرضِ والماءِ، يُوَقِّتُ لها زمانَ نباتِها وزمانَ تَهَشُّمِها[١]. وأَمْرُ النُّبُوَّةِ والأَحلام[٢] وما يَحْدُثُ في أَنْفُسِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، ثُمَّ يَظْهَرُ مِنْهُمْ بالقَوْلِ والفِعْلِ. ثُمَّ اجْتِمَاعُ العلماءِ والجُهَّالِ والمُهْتَدِينَ والضُّلَّالِ عَلى ذِكْرِ اللَّهِ تعالى وتعظيمِهِ، واجْتِماعُ مَنْ شكَّ في اللَّهِ تعالى وكَذَّبَ بِهِ على الإِقْرارِ بِأَنَّهُمْ أُنْشِئُوا حَدِيثاً ومَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لم يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ. فَكُلُّ ذلك يَهْدِي إِلى اللَّهِ وَيَدُلُّ على الَّذِي كانَتْ مِنْهُ هَذِهِ الأُمُورُ، مَعَ ما يَزِيدُ ذلك يَقِيناً عِنْدَ المؤمنينَ. بأَنَّ اللَّهَ حَقٌّ كبيرٌ، ولا يُقَدِّرُ أَحَدٌ أَنَّهُ باطِلٌ.

إِنَّ للسُّلطانِ الْمُقْسط[٣] حقّاً لا يَصْلُحُ لِخَاصَّةٍ ولا عامَّةٍ أَمْرٌ إِلَّا بإِرَادَتِهِ. فَذُو اللُّبِّ حقيقٌ أَنْ يُخْلِصَ لَهُمُ النَّصيحَةَ وَيَبْذُلُ لَهُمُ الطَّاعَةَ، ويَكْتُمُ سرَّهُمْ، ويُزَيِّنَ سِيرَتَهُمْ ويَذُبَّ بلسَانِهِ ويدِهِ عَنْهُمْ، ويَتَوَخَّى مَرْضَاتَهُمْ، ويَكُونَ مِنْ أَمرِهِ المواتاةُ لهم، والإِيثارُ لأَهوائِهِمْ ورَأْيِهِمْ على هَوَاهُ، ويُقَدِّر الأمورَ على مُوَافَقَتِهِمْ، وإِنْ كانَ ذَلِكَ مُخَالِفاً، وأَنْ يكونَ مِنهُ الجِدُّ في المُخالَفَةِ لِمَنْ جَانَبَهُمْ، وجَهِلَ حقَّهُم. ولا يُوَاصِلَ مِنَ النَّاسِ

(١) تهشمها: من هَشَمَ، أي يبسها وتكسرها.

(٢) الأحلام: جمع حلم «بضم فسكون»: ما يراه النائم.

(٣) المقسط: من قَسَطَ، العادل. والقاسط: الجائر الظّالم. حاد عن الحق.

إِلَّا مَنْ لا تُبَاعِدُ مُوَاصَلَتُهُ إيَّاهُ مِنْهُمْ، ولا تَحْمِلُهُ عَدَاوَةُ أَحَدٍ لهُ ولا إِضْرارٌ بِهِ على الإضْطغَانِ[١] عليهم، ولا مُواتَاةُ أَحَدٍ على الاستخفافِ بشيءٍ مِنْ أُمورِهِمْ والانتقاصِ لشيءٍ من حَقِّهِمْ، ولا يَكْتُمَهُمْ شَيْئاً من نَصِيحَتِهِمْ، ولا يَتَثَاقَلَ عن شيءٍ من طاعتِهِم، ولا يَبْطَرَ إِذا أَكْرَمُوهُ، ولا يَجْتَرِئَ عليهِمْ إِذا قَرَّبُوهُ، ولا يَطْغَى إِذَا سلَّطُوهُ، ولا يُلْحِفَ[٢] إِذَا سَأَلَهُمْ، ولا يُدْخِلَ عَلَيْهِمُ المَؤُونَة، ولا يَسْتَثْقِلَ ما حَمَّلُوهُ، ولا يَغْتَرَّ إِذا رَضُوا عنهُ، ولا يَتَغَيّرَ لهم إِذا سَخِطُوا عليهِ، وَأَنْ يَحْمَدَهمْ على ما أَصابَ مِنْ خَيْرٍ مِنْهُمْ، فإِنَّهُ لا يَقْدِرُ أَحْدٌ على أَنْ يُصِيبَه بِخَيْرٍ إِلَّا بدفاعِ اللَّهِ عنهُ بِهِمْ.

مِمَّا يَدُلُّ على عِلْمِ العالِمِ مَعْرِفَتُهُ ما يُدْرَكُ مِنَ الأُمورِ، وإِمْسَاكُهُ عَمَّا لا يُدْرَكُ وتَزْيينُهُ نفسَهُ بالمكارِمِ، وظُهورُ علْمِهِ للنَّاسِ مِنْ غيرِ أَنْ يَظْهَرَ مِنْهُ فَخْرٌ ولا عُجْبٌ، ومَعْرِفَتُهُ بِزَمانِهِ الذي هو فيهِ، وَبَصَرُهُ بالنَّاسِ، وأَخْذُهُ بالقِسْطِ[٣]، وإِرشادُهُ المُسْتَرْشِدَ، وحُسْنُ مُخَالَقَتِهِ خُلَطَاءَهُ، وتَسْوِيَتُهُ بَيْنَ قلبِهِ وَلِسَانِهِ، وَتَحَرِّيهِ الْعَدْلَ في كلِّ أَمرٍ، ورحْبُ ذَرْعِهِ فيما نَابَهُ، واحْتِجَاجُهُ بالحُجَجِ فيما عَمِلَ، وحُسْنُ تبْصِيرِهِ.

(١) الإضطغان: من ضَغِنَ، أي حمل الضّغينة وهي الحقد.
(٢) الإلحاف: من أَلْحَفَ، الإلحاح في السؤال.
(٣) القسط: العدل.

مَنْ أَرادَ أَنْ يُبْصِرَ شَيئاً من علمِ الآخِرةِ فبالْعِلْمِ الذي به يُعْرَفُ ذلك، وَمَنْ أَرادَ أَنْ يُبْصِرَ شيئاً من علمِ الدُّنيا فَبِالأَشْياءِ التي هي تَدُلُّ عليه.

لِيَكُنِ المرءُ سَؤولاً. ولْيَكُنْ فَصُولاً بينَ الحقِّ والباطلِ. ولْيَكُنْ صَدُوقاً لِيُؤْمَنَ على ما قال. ولْيَكُنْ ذا عَهْدٍ لِيُوَفى له بِعَهْدِهِ. ولْيَكُنْ شَكُوراً لِيَسْتَوْجِب الزِّيادَة. ولْيَكُنْ جَوَاداً لِيَكُونَ للخيرِ أَهْلاً. ولْيَكُنْ رَحِيماً بالْمَضْرورينَ لِئَلَّا يُبْتَلى بالضُّرّ. ولْيَكُنْ وَدُوداً لِئَلَّا يَكُونَ مَعْدِناً لأَخلاقِ الشَّيْطَانِ. ولْيَكُنْ حافِظاً لِلسَانِهِ مُقْبِلاً على شَأْنِهِ لِئَلَّا يُؤخَذَ بما لم يَجْتَرِم[1]. ولْيَكُنْ مُتَواضِعاً لِيُفْرَحَ لَهُ بالخيرِ ولا يُحْسَدَ عليه. ولْيَكُنْ قَنِعَاً لِتَقَرَّ عَيْنُهُ بما أُوتِيَ. ولْيُسَرَّ للنَّاسِ بالخيرِ لِئَلَّا يُؤذِيه الْحَسَدُ. ولْيَكُنْ حَذِراً لِئَلَّا تَطُولَ مَخَافَتُهُ. ولا يَكُنْ حَقُوداً لِئَلَّا يُضِرَّ بِنَفْسِهِ إِضْراراً باقِياً. وَلْيَكُنْ ذَا حَيَاءٍ لِئَلَّا يُسْتَذَمَّ لِلْعُلَمَاءِ. فإِنَّ مَخَافَةَ العالمِ مَذَمَّةَ العُلماءِ أَشدُّ مِنْ مَخَافَتِهِ عُقُوبَةَ السُّلْطَانِ.

حَيَاةُ الشَّيْطَانِ تَرْكُ العِلْمِ، وَروحُهُ وَجَسَدُهُ الْجَهْلُ، ومَعْدِنُهُ فِي أَهْلِ الحِقْدِ والقَسَاوَةِ، وَمَثْوَاهُ في أَهْلِ الغَضَبِ. وعَيْشُهُ في المُصَارَمَةِ[2]، ورَجَاؤُهُ فِي الإِصرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ.

(١) يجترم: من جرم، لم يقترف الجريمة.
(٢) المصارمة: من صَرَمَ، المقاطعة والتَّنافر.

وَقَالَ: لا يَنْبَغِي للمرءِ أَنْ يَعْتَدَّ بعِلْمِهِ وَرَأْيِهِ مَا لَمْ يُذَاكِرْهُ ذوي الألباب، وما لَمْ يُجَامِعُوهُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لا يُسْتَكْمَلُ عِلْمُ الأَشياءِ بالعَقْلِ الفَرْدِ.

أَعْدَلُ السِّيَرِ أَنْ تَقِيسَ النَّاسَ بِنَفْسِكَ، فَلَا تَأْتِي إِلَيْهِمْ إِلَّا مَا تَرْضَى أَنْ يُؤتَى إِلَيْكَ.

وأَنْفَعُ العَقْلِ أَنْ تُحسِن الْمَعِيشَةَ فِيما أُوتِيتَ مِنْ خَيْرٍ، وأَنْ لَا تَكْتَرِثَ مِنَ الشَّرِّ بِمَا لَمْ يُصِبْكَ.

وَمِنَ الْعِلْمِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ لَا تَعلّمُ بما لا تُعلِّمُ.

وَمِنْ أَحْسَنِ ذَوي العقولِ عَقْلاً مَنْ أَحْسَن تَقْدِيرَ أَمْرِ مَعَاشِهِ ومَعَادِهِ تَقْدِيراً لا يُفْسِدُ عليهِ واحدٌ مِنْهُما الآخَرَ. فإِنْ أَعْيَاهُ ذَلكَ رَفَضَ الأَدْنَى، وآثَرَ عليهِ الأَعْظَمَ.

وَقَالَ: المُؤمِنُ بشيءٍ مِنَ الأشياءِ، وإِنْ كانَ سِحْراً، خَيْرٌ مِمَّنْ لا يُؤمِنُ بشيءٍ ولا يَرْجُو مَعَاداً.

لا تؤَدِّي التَّوْبَةُ أَحَداً إِلى النَّارِ، ولا الإِصْرَارُ على الذُّنُوبِ أَحَداً إِلى الْجَنَّةِ.

مِنْ أَفْضَلِ أَعمالِ الْبِرِّ ثَلاثُ خِصالٍ: الصِّدْقُ في الغضَبِ، والجُودُ في العُسرَةِ، والعَفْوُ عندَ القُدْرَةِ.

رَأْسُ الذّنوبِ الكَذِبُ، هو يُؤَسِّسُهَا، وهو يَتَفَقَّدُها ويُثَبِّتُها،

وَيَتَلَوَّنُ، ثلاثةَ ألوانٍ: بالأُمْنِيَّةِ، والْجُحُودِ، والْجَدَلِ. يَبْدَأُ صاحبَهُ بالأُمْنِيَّةِ الكاذبةِ فيما يُزيِّنُ له من السَّوءَاتِ، فَيُشَجِّعُهُ عليها بأَنَّ ذلكَ سَيَخْفَى، فإذا ظهر عليهِ قابَلَهُ بالجُحودِ والمُكَابَرةِ[١]، فإنْ أعياهُ ذلكَ خَتَم بالجَدَلِ، فخاصمَ[٢] عنِ الباطل، ووَضع له الحُجَجَ، والْتَمَسَ بِهِ التَّثَبُّتَ، وَكَابَرَ بهِ الحَقَّ حتَّى يكونَ مُسارعاً لِلضَّلَالةِ، ومُكابِراً بالفَوَاحِشِ.

لَا يَثْبُتُ دينُ المرءِ على حالةٍ واحدةٍ أَبَداً، ولكِنَّهُ لا يَزالُ إِمَّا زائداً وإِمَّا ناقصاً.

مِنْ علاماتِ اللّئيمِ المخادعِ أَنْ يكونَ حَسَنَ القولِ، سَيِّءَ الفِعْلِ، بعيدَ الغضبِ، قريبَ الحَسَدِ، حَمُولاً لِلْفُحْشِ، مُجَازِياً بالحِقْدِ، مُتَكَلِّفاً لِلجُودِ، صغيرَ الخَطَرِ[٣]، مُتَوَسِّعاً فيما ليسَ لَهُ، ضَيِّقاً فِيما يَمْلِكُ.

وَكَانَ يُقالُ: إِذَا تَخَالَجَتْكَ[٤] الأُمورُ فاسْتَقِلَّ أَعْظَمَهَا خَطَراً، فإنْ لم يَسْتَبِنْ ذلك، فأرْجَاها دَرَكاً، فإنْ اشْتَبَهَ ذلك، فأَجْدَرُهَا أَنْ لا يَكُونَ لَهُ مَرْجُوعٌ حِينَ تُوَلِّي فُرْصَتُهُ.

---

(١) المكابرة: من كَابَرَ، مدافعة الحق بعد العلم به. وهي مرض نفسي يهدم الشّخصية.

(٢) خاصم عن الباطل: دافع عنه.

(٣) الخطر، هنا، القدر والمنزلة.

(٤) تخالجتك: من خَلَجَ، تجاذبتك.

وَكَانَ يُقالُ: الرِّجَالُ أَربعةٌ: اِثْنَانِ تَخْتَبِرُ ما عِنْدَهُما بالتَّجْرِبَةِ، واثْنَانِ قَدْ كُفِيتَ تَجْرِبَتَهُمَا.

فَأَمَّا اللَّذانِ تحتاجُ إِلَى تَجْرِبَتِهما، فإِنَّ أحدَهُمَا بَرٌّ كان مع أَبرار، والآخَرُ فاجرٌ كانَ مَعَ فُجَّارٍ. فإِنَّكَ لا تَدْرِي، لَعَلَّ الْبَرَّ مِنْهُمَا إِذَا خَالَطَ الفُجَّارَ أَنْ يَتَبَدَّلَ فَيَصِيرَ فَاجِراً، ولَعَلَّ الفاجِرَ مِنْهُمَا إِذا خالَطَ الأَبْرَارَ أَنْ يَتَبَدَّلَ فيصيرَ بَرّاً، فَيَتَبَدَّلُ البَرُّ فَاجِراً والفاجِرُ برّاً.

وأَمّا اللّذانِ قَدْ كُفِيتَ تَجْرِبَتَهُما، وتبيَّنَ لكَ ضَوْءُ أمْرِهِما، فإِنَّ أَحدَهُمَا فاجرٌ كانَ في أبرارٍ، والآخَرُ بَرٌّ كانَ في فُجَّارٍ.

حَقٌّ على العاقلِ أَنْ يَتَّخِذَ مِرْآتينِ، فَيَنْظُرَ مِن إِحْدَاهُمَا في مَساوِئِ نَفْسه فَيَتَصَاغَرَ بها، ويُصْلِحَ ما اسْتَطاعَ مِنْهَا، وَيَنْظُرَ من الأُخْرَى في مَحَاسِنِ الناسِ فَيُحَلِّيَهُمْ بِها، وَيَأْخُذَ ما اسْتَطَاعَ مِنْهَا.

إِحْذَرْ خُصومةَ الأَهْلِ وَالْوَلَدِ والصَّديقِ والضَّعيفِ، واحْتَجِجْ عَلَيْهِمْ بالحُجَجِ.

لا يُوقِعَنَّكَ بلاءٌ تَخَلَّصْتَ مِنْهُ في آخَرَ لَعَلَّكَ لا تَخْلُص مِنْهُ.

الْوَرِعُ لا يَخْدَعُ، والأَدِيبُ لَا يُخْدَعُ.

ومِنْ وَرَعِ الرَّجُل أنْ لا يَقولَ ما لا يَعْلَمُ، ومِنْ الإِرْبِ[١] أَنْ يَتَثَبَّتَ فِيما يَعْلَمُ.

وكَانَ يُقالُ: عَمَلُ الرَّجُلِ فيما يَعْلَمُ أَنَّهُ خَطَأٌ هَوىً، والهوى آفَةُ العَفافِ وتَرْكُهُ العملَ بِما يَعْلَمُ أنَّهُ صَوَابٌ تَهاوُنٌ، والتَّهاوُنُ آفَةُ الدِّينِ. وإِقْدَامُهُ على ما لا يَدْرِي أَصَوَابٌ هُوَ أَمْ خَطَأٌ جِماحٌ[٢]، والجِماحُ آفةُ العقلِ.

وَكَانَ يُقالُ: وَقِّرْ مَنْ فوقَكَ، ولِنْ لِمَنْ دُونَكَ، وأَحْسِنْ مُواتاةَ[٣] أَكْفَائِكَ، وَلْيَكُنْ آثَرَ ذلكَ عندَكَ مُواتَاةُ الإِخوانِ، فإِنَّ ذلكَ هوَ الَّذي يَشْهَدُ لكَ أَنَّ إِجْلَالَكَ مَنْ فَوْقَكَ لَيْسَ بِخُضوعٍ منكَ لَهُمْ، وأَن لِينَكَ لِمَنْ دُونَكَ ليسَ لاِلْتِمَاسِ خِدْمَتِهِمْ.

خَمْسَةٌ مُفَرِّطونَ في خَمْسَةِ أَشْيَاءَ مُنَدَّمُونَ عليها: الوَاهِنُ المفرِّطُ إِذَا فاتَهُ العَمَلُ، والمُنْقَطِعُ مِنْ إخوانِهِ وصديقِهِ إِذا نابت النوائب، والمُسْتَمْكِنُ مِنْهُ عَدُوُّهُ لِسُوءِ رَأْيِهِ إذا تَذَكَّرَ عَجْزَهُ، والمُفَارِقُ لِلزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ إِذَا ابْتُلِيَ بالطَّالِحَةِ، والْجَرِيءُ على الذُّنُوبِ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ.

---

(١) الأرب: من أَرِبَ «بكسر الهمزة»، الدهاء والبصر بالأمور.

(٢) التمادي في الغواية. يقال: جمح الرجل، أي ركب هواه فلم يمكن ردّه.

(٣) المواتاة: من أتى، الوجه الذي يؤتى منه.

أُمورٌ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بقرائِنِها: لا يَنْفَعُ العقلُ بغيرِ ورَعٍ، ولا الحِفْظُ بِغَيْرِ عَقْلٍ، ولا شِدَّةُ البَطْشِ بِغيرِ شِدَّةِ الْقَلْبِ، ولا الْجَمالُ بغيرِ حَلَاوَةٍ، ولا الحَسَبُ بغيرِ أَدَبٍ، ولا السُّرورُ بغيرِ أَمْنٍ، ولا الغِنَى بغيرِ جُودٍ، ولا المُرُوءَةُ بغيرِ تَوَاضُعٍ، ولا الخَفْضُ بغيرِ كفايةٍ، ولا الاجْتِهادُ بغير تَوْفِيقٍ.

أُمُورٌ هُنَّ تَبَعٌ لأمورٍ: فالمُروءَاتُ كُلُّهَا تَبَعٌ للعقلِ، والرَّأْيُ تَبَعٌ للتَّجْرِبَةِ، والْغِبْطَةُ تَبَع لِحُسْنِ الثَّناءِ، والسُّرورُ تَبَعٌ للأَمْنِ، والقَرَابَةُ تَبَعٌ للمودَّةِ، والعملُ تَبَعٌ لِلْقَدْرِ، والجِدَةُ[١] تَبَعٌ للإِنْفَاقِ[٢].

أَصْلُ العقلِ التَّثبُّتُ، وَثَمَرَتُهُ السَّلامةُ، وأَصْلُ الوَرَعِ القَنَاعةُ، وَثَمَرَتُهُ النُّجْحُ.

لَا يُذْكَرُ الفَاجِرُ في العَقُلَاءِ، ولا الكذُوبُ في الأَعِفَّاءِ، وَلَا الخَذُولُ[٣] في الكَرمَاءِ، ولا الكَفُورُ[٤] بشيءٍ مِنَ الْخَيْرِ.

لا تُؤَاخِيَنَّ خَبّاً[٥]، ولا تَسْتَنْصِرَنَّ عاجِزاً، ولا تَسْتَعِينَنَّ كَسِلاً.

---

(١) الجدة: من وَجَدَ، وجدان المال وإدراكه.

(٢) الإنفاق: من أنفق، أنفق: صرف المال. في الحديث الشريف: «أنفق أُنفق عليك».

(٣) الخذول: من خَذَلَ، تارك الإعانة والنصرة.

(٤) الكفور: من كَفَرَ، الذي يجحد النعمة ويسترها.

(٥) الخَبُّ «بفتح الخاء» الرجل الخداع الخبيث.

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ ما يُرَوِّحُ بهِ المرءُ نَفْسَهُ أَنْ لا يَجْرِيَ لِمَا يَهْوَى، وليسَ كَائِناً، إِلَّا لما لا يَهْوَى، وهُوَ لا مَحَالَةَ كائِنٌ.

اغْتَنِمْ مِنَ الخَيْرِ ما تَعَجَّلْتَ، ومِنَ الأَهْواءِ ما سَوَّفْتَ، ومِنَ النَّصَبِ ما عادَ عَلَيْكَ، ولا تَفْرَحْ بالبِطَالَةِ، ولَا تَجْبُنْ عَنِ العَملِ.

مَنِ اسْتَعْظَمَ مِنَ الدُّنْيا شَيْئاً فَبَطِرَ، واسْتَصْغَرَ مِنَ الْبِرِّ شيئاً فَتَهاوَنَ، واحْتَقَرَ مِنَ الإِثمِ شيئاً فاجْتَرَأَ عليهِ، واغْتَرَّ بِعَدُوٍّ وإِنْ قَلَّ فَلَم يَحْذَرْهُ، فذلكَ مِنْ ضَيَاعِ العقْلِ.

لَا يَسْتَخِفّ ذو العقلِ بأَحَدٍ، وأَحَقُّ مَنْ لم يُسْتَخَفَّ بِهِ ثَلَاثَةٌ: الأَتْقِياءُ، والوُلاةُ، والإِخْوانُ. فإِنَّهُ مَنِ اسْتَخَفَّ بالأتقياء أَهْلَكَ دِينَهُ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بالوُلاةِ أَهْلَكَ دُنْياهُ، ومَنِ اسْتَخَفَّ بالإِخْوَانِ أَفْسَدَ مُروءَتَهُ.

مَنْ حَاوَلَ الأُمورَ احتاجَ فيها إِلى ستٍ: الرّأْيُ، والتَّوْفيقُ، والفُرْصَةُ، والأَعْوانُ، والأَدَبُ، والاجْتِهادُ.

وهُنَّ أَزْواجٌ:

فالرأيُ والأدبُ زَوْجُ، لا يَكْمُلُ الرأْيُ بغير الأَدَبِ، ولا يَكْملُ الأَدَبُ إِلا بالرأْيِ.

والأَعْـوانُ والـفُـرْصَـةُ زَوْجٌ، لا يـنـفَـعُ الأَعْـوانُ إلا عـنـدَ الفُرْصَةِ، ولا تَنْفَعُ الفُرْصَةُ إلَّا بحضورِ الأعوانِ.

والتَّوْفِيقُ والاجْتِهادُ زَوْجٌ، فالاجتِهَادُ سَبَبُ التَّوفِيقِ، وبالتَّوْفِيقِ يَنْجَحُ الاجْتِهادُ.

يَسْلَمُ العاقِلُ مِنْ عِظَامِ الذنُوبِ والعُيُوبِ بالقَنَاعَةِ ومُحَاسَبَةِ النَّفْسِ.

لَا تَجِدُ العاقِلَ يُحَدِّثُ مَنْ يخافُ تكذيبَهُ، ولا يَسأَلُ مَنْ يخافُ مَنْعَهُ، ولا يَعِدُ ما لا يَجِدُ إِنْجَازَهُ، ولا يَرْجُو ما يَعْنُفُ بِرَجَائِهِ، ولا يُقْدِمُ على ما يَخَافُ العَجْزَ عَنْهُ.

وهو يُسخِّي[1] بِنَفْسِهِ عَمَّا يُغْبَطُ به القَوَّالونَ خروجاً من عَيْبِ التَّكْذِيبِ، ويُسَخِّي بِنَفْسِهِ عَمَّا يُنالُ به السائِلون[2] سلامةً من مذَلَّةِ المسْأَلَةِ، ويُسَخِّي بنفسِهِ عَنْ مَحْمَدَةِ المواعيدِ بَرَاءَةً مِنْ مَذَمَّةِ الخُلْفِ، ويُسَخِّي بِنَفْسِهِ عَنْ مَرَاتِبِ المُقْدِمِينَ ما يَرَى مِنْ فَضَائِحِ الْمُقَصِّرِينَ.

لا عَقْلَ لِمَنْ أَغْفلَهُ عَنْ آخِرَتِهِ ما يَجِدُهُ مِنْ لَذَّةِ دُنْياهُ. وليْسَ مِنَ العَقْلِ أَنْ يَحْرِمَهُ حَظَّهُ مِنَ الدُّنيا بَصَرُهُ بزَوَالِهَا.

---

(١) يُسْخِي: من سخا. سخا نفسه وبنفسه: ترك الأمر ولم تنازعه نفسه فيه.
(٢) أي عما يصاب به السائلون من مذلة المسألة.

حازَ الخَيْرَ رَجُلانِ: سَعِيدٌ ومَرْجُوٌّ. فالسَّعِيدُ الفالِجُ[١]، والْمَرْجُوُّ مَنْ لم يَخْصِمْ[٢].

والْفَالِجُ الصَّالِحُ ما دامَ في قَيْدِ الحياةِ وتَعَرُّضِ الفِتَنِ في مُخَاصَمَةِ الْخُصَمَاءِ مِنَ الأَهْواءِ والأَعْدَاءِ.

السَّعِيدُ يُرَغِّبُهُ اللَّهُ في الآخِرَةِ حَتَّى يَقُولَ: لا شيءَ غَيْرُها. فإِذَا هَضَمَ دنْياهُ وزَهِدَ فيها لآخِرَتِهِ لم يَحْرِمْهُ اللَّهُ بذلك نصيبَهُ مِنَ الدُّنيا، ولم يَنْقصْهُ من سُرورِهِ فيها.

والشَّقيُّ يُرَغِّبُهُ الشَّيطانُ في الدُّنيا حَتَّى يَقُولَ: لا شيءَ غَيْرُهَا، فَيُعَجِّلُ اللَّهُ له التَّنْغِيصَ[٣] في الدُّنيا الّتي آثَر، مَعَ الخِزْيِ الذي يَلْقَى بَعْدَها.

الرِّجالُ أَرْبَعَةٌ: جَوَادٌ، وبَخيلٌ، ومُسْرِفٌ، ومُقْتَصِدٌ.

فالجَوَادُ الّذي يُوَجّهُ نَصِيبَ دُنْيَاهُ جميعاً في أَمْرِ آخِرَتِهِ.

والبخيلُ الّذي لا يُعْطِي واحدةً مِنْهُمَا نصيبَها.

والمُسْرِفُ الّذي يَجْمَعُهُمَا لِدُنْيَاهُ.

والمُقْتَصِدُ الّذي يُلْحِقُ بِكُلِّ واحدةٍ مِنْهُمَا نَصِيبَها.

---

(١) الفالج: من فلج، أي الفائز الغالب. وهو أيضاً الذي يعلو أصحابه ويفوتهم.

(٢) يخصم: من خصم، أي من لم يكن منازعاً أو مجادلاً.

(٣) التنغيص: من نَغَّص، أي تكدير العيش.

أَغْنَى النَّاسِ أَكْثَرُهُمْ إِحْساناً.

قَالَ رَجُلٌ لِحكيم: ما خَيْرُ ما يُؤْتَى المَرْءُ؟ قالَ: غَريزَةُ عَقْلٍ.

قَالَ: فإِنْ لم تَكُنْ؟ قالَ: فتَعَلُّمُ عِلْمٍ.

قَالَ: فإِنْ حُرِمَهُ؟ قَالَ: صِدْقُ اللِّسانِ.

قَالَ: فإِنْ حُرِمَهُ؟ قَالَ: سُكُوتٌ طويلٌ.

قَالَ: فإِنْ حُرِمَهُ؟ قَالَ: مِيتَةٌ عاجِلة.

مِنْ أَشَدِّ عُيُوبِ الإِنْسانِ خَفَاءُ عُيُوبِهِ عليهِ. فإِنهُ مَنْ خَفِيَ عليهِ عَيْبُهُ، خَفِيَت عليهِ مَحَاسِنُ غيرِهِ، وَمَنْ خَفِيَ عليهِ عَيْبُ نَفْسِهِ ومَحَاسِنُ غيرِهِ، فَلَنْ يُقْلِعَ عَنْ عَيْبِهِ الذي لا يَعْرِفُ، ولَنْ يَنالَ محاسِنَ غَيْرِهِ الّتي لا يُبْصِرُها أَبَداً.

خُمُولُ الذِّكْرِ أَجْمَلُ مِنَ الذِّكْرِ الذَّمِيمِ.

لَا يُوجَدُ الْفَخُورُ محموداً، ولا الغَضُوبُ مَسْرُوراً، ولا الْحُرُّ حَرِيصاً، ولا الكرِيمُ حَسُوداً، ولا الشَّرِهُ غَنِيّاً، ولا المَلُولُ ذَا إِخْوانِ.

خِصَالٌ يُسَرُّ بها الجاهِلُ، كُلُّها كائِنٌ عليهِ وَبَالاً:

مِنْهَا أَنْ يَفْخرَ مِنَ العِلْمِ والمُروءَةِ بما لَيْسَ عِنْدَهُ.

ومنها أَنْ يَرَى بالأَخْيارِ مِنَ الاسْتِهانَةِ والجَفْوَةِ مَا يُشْمِتُهُ بِهِمْ.

ومِنْهَا أَنْ يُنَاقِلَ[١] عَالِماً ودِيعاً مُنْصِفاً له في القَوْلِ، فَيَشْتَدَّ صَوْتُ ذلكَ الجاهِلِ عليهِ، ثم يُفْلِجُهُ[٢] نُظَرَاؤُهُ مِنَ الْجُهَّالِ حَوْلَهُ، بِشِدَّةِ الصَّوْتِ وَكَثْرَةِ الضَّحِكِ.

ومنها أَنْ تَفْرُطَ مِنْهُ الكَلِمَةُ أَوْ الفَعْلَةُ المعجِبَةُ للقومِ فَيُذْكَرَ بها.

وَمِنْهَا أَنْ يَكونَ مَجْلِسُهُ في الْمَحْفِلِ أَوْ عِنْدَ السُّلْطانِ فوقَ مَجَالِسِ أَهْلِ الفَضْلِ عَلَيْهِ.

مِنَ الدَّليلِ على سَخَافَةِ المُتَكَلِّمِ أَنْ يكونَ ما يُرَى مِنْ ضَحِكِهِ ليسَ على حَسَبِ ما عِندَهُ مِنَ القولِ. أو يُجَاذِبَ الرّجُلَ الكلامَ وهو يُكلِّمُ صَاحِبَهُ ليكونَ هو المتكلِّمَ؛ أَوْ يَتَمَنَّى أَنْ يكونَ صَاحِبُهُ قَدْ فَرَغَ وأَنْصَتَ لَهُ، فإذا أَنْصَتَ له، لم يُحْسِنِ الكلَامَ.

فَضْلُ[٣] العلمِ في غيرِ الدِّينِ مَهْلَكَةٌ، وَكَثْرَةُ الأدَبِ في غيرِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَمَنْفَعَةِ الأَخْيَارِ قائِدٌ إِلى النَّارِ. والحِفْظ الذكيُّ الواعي بغيرِ العلمِ النَّافعِ مُضِرٌّ بالعمل الصَّالحِ. والعَقْلُ غيرُ الوازعِ عَنِ الذّنوبِ خازِنٌ للشيطانِ.

---

(١) المناقلة: من ناقَلَ، المحادثة.

(٢) يفلجه: من فلج، ينصره ويظفره؛ يقال: أفلجه، إذا أظفره.

(٣) فَضْلُ العلم: من فضل، زاد، أي زيادته.

لا يُؤْمِنَنَّكَ شرَّ الجاهلِ قَرَابَةٌ ولا جِوارٌ ولا إلفٌ. فإنَّ أَخوفَ مَا يَكُونُ الإنسانُ لحريقِ النَّارِ أَقْرَبُ ما يكونُ مِنْها. وكذلك الجاهل، إنْ جاوَرَكَ أَنْصَبَكَ[1]، وإنْ ناسَبَكَ جَنَى عَلَيْكَ، وإنْ أَلِفَكَ حَمَلَ عَلَيْكَ ما لا تُطِيقُ، وإنْ عَاشَرَكَ آذاكَ وأَخَافَكَ؛ مَعَ أَنَّهُ عِنْدَ الجُوعِ سبُعٌ ضارٍ، وعِنْدَ الشِّبَعِ مَلِكٌ فَظٌّ، وعندَ المُوَافَقَةِ في الدِّينِ قائِدٌ إلى جَهَنَّمَ. فأَنْتَ بالهرب مِنْهُ أَحقُّ منكَ بالهربِ من سُمِّ الأَسَاوِد[2]، والحريقِ الْمَخُوفِ، والدَّيْنِ الفادحِ، والدّاءِ العَيَاءِ[3].

وكانَ يُقَالُ: قارِبْ عَدُوَّكَ بعض المُقَارَبَةِ تَنَلْ حاجَتَكَ، ولا تُقَارِبْهُ كُلَّ المُقَارَبَةِ فَيَجْتَرِئَ عليكَ عَدُوُّكَ، وتُذِلّ نفسَكَ، ويَرْغَبَ عَنْكَ ناصِرُكَ. وَمَثَلُ ذلك مَثَلُ العودِ المنصوبِ في الشمسِ إنْ أَمَلْتَهُ قليلاً زَادَ ظِلُّهُ، وإنْ جَاوَزْتَ الحدَّ في إمالَتِهِ نَقَصَ الظِّلُّ.

الحَازِمُ لا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ على كلِّ حالٍ: إنْ كانَ بَعِيداً لم يَأْمَنْ مِنْ معاودتهِ، وإنْ كانَ قَريباً لم يَأْمَنْ مُوَاثَبَتَهُ، وإن رآهُ مُتَكَشِّفاً

(١) أنصبك: من نَصِبَ، أتعبك وأعياك.
(٢) الأساود: جمع أسود، وهو الحية العظيمة.
(٣) الداء العياء: من فعل عيّ، أي الذي لا يبرأ منه. كأنه أعيا الأطباء، أي أعجز.

لم يَأْمَنِ اسْتِطْرَادَهُ[١] وكَمِينَهُ، وإِنْ رآه وَحيداً لم يأْمَنْ مَكْرَهُ.

الملِكُ الحازِمُ يَزْدادُ برأْيِ الوزراءِ الحَزَمَةِ، كما يزدادُ البحرُ بِمَوَادِّهِ مِنَ الأَنهارِ.

الظَّفرُ بالحزمِ، والحزمُ بإجالةِ الرأْيِ، والرأْيُ بِتَكْرارِ النَّظرِ وبتحصينِ الأسرارِ.

إِنَّ المستشيرَ ـ وإِنْ كَانَ أَفْضَلَ مِنَ المُسْتَشَار رأْياً ـ فهو يَزْدادُ برأْيِهِ رأْياً، كما تَزْدَادُ النَّارُ بِالْوَدَكِ[٢] ضَوْءاً. وعلى المُسْتَشَارِ موافقةُ المُسْتَشِير على صَوابِ ما يَرَى، والرِّفْقُ بهِ في تبصيرِ خَطإٍ إِنْ أَتَى بهِ، وتقليبُ الرأْيِ فيما شَكَا فيهِ، حتَّى تستقيمَ لَهُمَا مُشَاوَرَتُهُما.

لَا يَطْمَعَنّ ذو الكِبْرِ في حُسْنِ الثَّناءِ، ولا الخَبُّ[٣] في كَثْرَةِ الصَّديقِ، ولا السَّيِّئُ الأَدبِ في الشَّرفِ، ولا الشَّحِيحُ في الْمَحْمَدَةِ، ولا الحَرِيصُ في الإِخوانِ، ولا الملكُ الْمُعْجَبُ بثباتِ المُلْكِ.

صَرْعَةُ اللِّينِ أَشَدُّ اسْتِئْصالاً مِنْ صَرْعَةِ المُكَابَرَةِ.

---

(١) الاستطراد: فعل استطرد: أظهر له الانهزام مكيدة.

(٢) الدسم والدهن والشحم والأدم وما أشبه ذلك. «المواد الشحمية».

(٣) الخبّ: من خَبَّ وهو الخدّاع.

أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ لا يُسْتَقَلُّ منها قليلٌ: النَّارُ، والمرضُ، والعدوُّ، والدَّيْنُ.

أَحَقُّ النَّاسِ بالتَّوْقِيرِ الْمَلِكُ الحليمُ، العالمُ بالأمورِ وفُرَصِ الأعمالِ ومَوَاضِعِ الشِّدَّةِ واللِّينِ والغَضَبِ والرِّضا والْمُعَاجَلَةِ والأناةِ[1]، النَّاظرُ في الأمرِ يومَهُ وغدَهُ، وعَواقِبِ أعمالِهِ.

السَّبَبُ الذي يُدْرِكُ بِه العاجِزُ حاجَتَهُ هُو الَّذِي يَحُولُ بينَ الحازِمِ وبينَ طَلِبَتِهِ.

إِنَّ أَهْلَ العقلِ والكرمِ يَبْتَغُونَ إلى كلِّ معروفٍ وُصْلَةً وسَبيلاً.

وَالْمَوَدَّةُ بين الأَخيارِ سريعٌ اتّصالُها، بَطِيءُ انقطاعُها، وَمَثَلُ ذلكَ مَثَلُ كُوبٍ مذهّبٍ الذي هو بطيءُ الانكسارِ هَيِّنُ الإِصلاحِ. والمودّةُ بينَ الأشرارِ سريعٌ انقطاعُها، بطيءٌ اتصالُها، كالكُوزِ من الفَخَّارِ يكْسِرُهِ أَدَنى عبَث ثُمّ لا وَصْلَ لهُ أَبْداً.

والكريمُ يَمْنَحُ الرجلَ مودّتَهُ عن لِقاءَةٍ واحدةٍ، أَوْ مَعْرِفَةِ يومٍ، واللَّئِيمُ لا يَصِلُ أحداً إلّا عَنْ رَغْبَةٍ أَو رَهْبَةٍ.

وإِنَّ أَهَلَ الدّنيا يَتَعَاطَوْنَ فيما بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ ويَتَوَاصَلُون عليهما: ذَاتَ النفسِ، وذاتَ اليَدِ.

---

(١) الأناة: الصبر.

فأَمّا المُتَبَادِلُونَ ذاتَ اليدِ فهمُ المتعاونُونَ المُسْتَمْتِعُونَ الّذينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمْ الانتفاعَ ببعضِ مُتَاجَرَةٍ ومُكَايَلَةٍ.

ما التَّبَعُ والأعوانُ والصَّديقُ والحَشَمُ[١] إلّا لِلْمَالِ.

ولا يُظْهِرُ المروءَةَ إلّا المالُ. ولا الرَأْيُ ولا القوةُ إلا بالمالِ.

ومَنْ لا إخوانَ له فلا أهلَ لهُ. ومَنْ لا أولادَ لهُ فَلا ذِكْر لهُ. وَمَنْ لا عقلَ لَهُ فَلَا دنيا لَهُ ولا آخِرَة. ومَنْ لا مالَ لَه فلا شيءَ لَهُ.

والفَقْرُ داعيةٌ إلى صاحِبِهِ مَقْتَ[٢] النَّاسِ، وهُوَ مَسْلَبَةٌ للعَقْلِ والمروءَةِ، ومَذْهَبَةٌ للعلم والأَدبِ، ومَعْدِنٌ للتُّهْمَةِ، ومَجْمَعَةٌ للبلَايا. ومَن نزل به الفقرُ والفاقةُ لم يَجِدْ بُدّاً مِنْ تَرْكِ الْحَيَاءِ. ومَنْ ذَهَبَ حياؤُهُ ذَهَبَ سرورُهُ، ومَنْ ذَهَبَ سُرورُهُ مُقِّتَ، ومَنْ مُقِّتَ أُوذِيَ، ومن أُوذِي حَزِنَ، ومَنْ حَزِنَ ذهبَ عقلُهُ واسْتُنْكِرَ حِفْظُهُ وفَهْمُهُ، ومَنْ أُصِيبَ في عقلِهِ وفَهْمِهِ وحِفْظِهِ كانَ أكثرُ قولِهِ وعملِهِ فيما يَكُونُ عليهِ لا لَهُ.

فإذا افْتَقَرَ الرجلُ اتَّهَمَهُ مَنْ كانَ لهُ مؤْتَمِناً، وأَساءَ بِهِ الظَّنَّ

(١) الحشم: من حشم، حَشْمُ الرجل: خدمه.
(٢) مَقْت: من مقت، بغض.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَناً. فإِنْ أَذْنَبَ غيْرُهُ أَظَنُّوهُ، وكانَ للتُّهْمَةِ وسُوءِ الظَّنِّ مَوْضِعاً.

وليس خَلَّةٌ[1] هي للغني مَدْحٌ إِلا هِيَ للفقيرِ عَيْبٌ.

فإن كانَ شُجاعاً سُمِّيَ أَهْوجَ، وإِنْ كانَ جَوَاداً سُمِّيَ مُفْسِداً، وإِنْ كانَ حَلِيماً سُمِّيَ ضَعِيفاً، وإِنْ كانَ وَقُوراً سُمِّيَ بَلِيداً، وإِنْ كانَ لَسِناً سُمِّيَ مِهْذَاراً، وإِنْ كانَ صَمُوتاً سُمِّيَ عَيِيًّا.

وكانَ يُقالُ: مَنِ ابْتُلِيَ بمرضٍ في جَسَدِهِ لا يفارِقُه، أَوْ بِفِرَاقِ الأَحبَّةِ والإِخوانِ، أَوْ بالغُرْبَةِ حَيْثُ لا يَعْرِفُ مَبِيتاً ولا مَقِيلاً ولا يَرْجُو إياباً، أَو بِفَاقَةٍ تَضْطَرُّهُ إِلى المسأَلَةِ، فالحياةُ لهُ مَوْتٌ، والموتُ لَهُ رَاحةٌ.

وَجَدْنَا البَلايا في الدّنيا إِنَّما يَسُوقُها إِلى أَهْلِها الحِرْصُ والشَّرَهُ. فَلَا يَزَالُ صاحبُ الدّنيا يتقلَّبُ في بَلِيّةٍ وتَعَبٍ، لأَنَّهُ لا يَزَالُ بِخَلَّةِ الحِرْصِ والشَّرَهِ.

وسَمِعْتُ العلماءَ قَالوا: «لا عقلَ كالتَّدبِيرِ، ولا وَرَعَ كالكَفِّ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ، ولا غِنى كالرِّضى. وأحقُّ ما صُبِر عليه ما لا سبيلَ إلى تغيِيرِهِ، وأفضلُ البِرِّ

(١) خلّة: الخصلة، العادة.

الرحمةُ. ورأْسُ المودّةِ الاسْتِرْسَالُ. ورأْسُ العقلِ المعرفةُ بما يكونُ وما لا يكونُ. وطيبُ النَّفْسِ حُسْنُ الانصرافِ عَمّا لا سبيلَ إِليهِ. وليسَ في الدُّنْيا سُرورٌ يَعْدِلُ صُحْبَةَ الإخوانِ، ولا فيها غَمٌّ يَعْدِلُ غَمَّ فَقْدِهِمْ».

لا يَتِمُّ حُسْنُ الكلامِ إِلّا بِحُسْنِ العملِ. كالمريضِ الّذي قَدْ عَلِمَ دواءَ نفسِهِ، فإِذَا هُوَ لم يَتَدَاوَ بِهِ لم يُغْنِهِ عِلْمُهُ.

والرَّجُلُ ذُو المروءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلى غَيرِ مالٍ، كالأَسَدَ الّذي يُهَابُ وإِنْ كانَ عَقِيراً[١]. والرّجلُ الذي لا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وإِنْ كَثُرَ مالُه، كالكَلْبِ الّذي يَهُوشُ على النَّاسِ وإِنْ طُوِّقَ وخُلْخِلَ[٢].

لِيَحْسُنْ تَعَاهُدُكَ نَفْسَكَ بما تكونُ بِهِ للخيرِ أَهلاً، فإِنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ أَتاكَ الخيرُ يَطْلُبُكَ، كما يَطْلُبُ الماءُ السَّيلَ إلى الحُدُورِ[٣].

وَقِيلَ في أَشياء ليسَ لها ثباتٌ ولا بَقَاءٌ: ظِلُّ الغمامِ، وخُلَّةُ[٤] الأشرارِ، وَعِشْقُ النِّساءِ، والنَّبَا الكاذِبُ، والمالُ الكثيرُ.

---

(١) عقيراً: من عَقَر، أي جريحاً.
(٢) خلخل، أي ألبس الخلخال، وهو حلي النساء.
(٣) الحدور: من حدر، سيلان الماء إلى الأماكن المنحدرة.
(٤) خُلة الأشرار، أي مصادقتهم.

وليس يَفْرَحُ العاقلُ بالمالِ الكثيرِ، ولا يُحْزِنُهُ قِلَّتُهُ، ولَكنْ مالُهُ عقلُهُ وما قَدَّمَ مِنْ صالِحِ عَمَلِهِ.

إِنَّ أَوْلَى الناسِ بفضل السرورِ وكَرَمِ العيشِ، وحُسْنِ الثَّنَاءِ، مَنْ لا يَبْرَحُ رَحْلُهُ[1] مِنْ إخوانِهِ وأصدقائِهِ من الصَّالحِين مَوْطُوءاً، ولا يزالُ عندَهُ منهم زِحامٌ، يَسُرُّهُمْ وَيَسُرُّونَهُ ويكونُ مِنْ وراءِ حاجاتِهم وأمورِهم، فإن الكريمَ إِذا عَثَرَ لم يُسْتَقَلَّ إلا بالكرامِ، كالفيلِ إِذا وحِلَ لم تَسْتَخْرِجْهُ إلا الفِيلَةُ.

لا يَرى العاقِلُ مَعْروفاً صَنَعَهُ وإِنْ كانَ كثيراً، ولو خاطَرَ بنفسِهِ وعرَّضَها في وجوه المعروفِ لم يرَ ذلك عيباً، بل يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنما أَخْطَرَ الفانيَ بالباقِي، واشتَرى العظيمَ بالصَّغيرِ.

وأَغْبَطُ الناسِ عندَ ذَوِي العُقُولِ أَكْثَرُهُمْ سائِلاً مُنْجِحاً، ومُسْتَجِيراً آمِناً.

لا تَعُدّ غَنِياً مَنْ لم يُشَارِكْ في مالِهِ. ولا تَعُدّ نَعيماً ما كانَ فيه تَنْغِيصٌ وسُوءُ ثَنَاءٍ. ولا تَعُدّ الغُنْمَ غُنْماً إِذا ساقَ غُرْماً، ولا الغُرْمَ غُرْماً إِذا ساقَ غُنْماً. ولا تَعْتَدَّ مِنَ الحياةِ ما كانَ في فِراقِ الأَحِبَّةِ.

ومنَ المَعُونةِ على تَسْلِيَةِ الهُمومِ وسُكونِ النَّفْسِ لقاءُ الأَخِ

(١) الرحل، هنا، مسكن الرجل ومنزله وبيته.

أَخاهُ، وإفضاءُ كلِّ واحدٍ مِنْهُمَا إلى صاحِبِهِ بِبَثِّهِ. وإذا فُرِّق بين الأليفِ وأَليفهِ، فقدْ سُلِبَ قرارهُ وحُرِمَ سُرورَهُ.

وقَلَّما نَرَانا نُخَلِّفُ عَقَبَةً مِنَ البَلاءِ إلّا صِرْنا في أُخْرى.

لَقَدْ صَدَقَ القائلُ الذي يقولُ: لا يَزالُ الرّجُلُ مُسْتَمِرّاً حتَّى يَعْثُرَ، فإذا عَثَرَ مَرَّةً واحدةً في أَرْضِ الخَبَارِ[1]، لَجَّ بِهِ العِثَارُ وإنْ مَشَى في جَدَدٍ[2]، لأَنَّ هذا الإنسانَ مُوَكَّل بهِ البلاءُ فلا يزالُ في تصرُّفٍ وتَقَلُّبٍ، لا يَدُوم لَهُ شيءٌ ولا يَثْبُتُ مَعَهُ؛ كما لا يَدومُ لطالِعِ النُّجومِ طلوعُهُ، ولا لآفِلِها أُفُولُهُ، ولكنَّها في تَقَلُّبٍ وَتَعَاقُبٍ؛ فَلا يَزالُ الطَّالِعُ يكونُ آفِلاً، والآفِلُ طالِعاً.

(١) الخبار: الأرض السهلة اللينة، ومن أمثال العرب: من تجنب الخبار أمن العثار.

(٢) الجدد: الأرض المستوية الرملية، وفي المثل: من سلك الجدد أمن العثار.

الأدب الكبير

مدخل الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْد لِلَّهِ ربِّ العالَمِين، وصَلَواتُهُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّاهرينَ.

قال عبد اللَّه بن المقفع:

وَجَدْنا النَّاسَ قبلَنا كانوا أَعظمَ أَجساماً، وأَوفَرَ[١]، معَ أجسامِهِمْ، أحلاماً[٢]، وأَشدَّ قوةً، وأَحسنَ بقوّتِهم للأمورِ إِتقاناً، وأطولَ أعماراً، وأَفضلَ بأعمارِهم للأَشياءِ اخْتِباراً.

فكانَ صاحبُ الدِّينِ منهُمْ أبلغَ في أمْرِ الدِّينِ عِلْماً وعملاً من صاحبِ الدِّينِ منا، وكان صاحبُ الدنيا على مِثْلِ ذلك مِنَ البلاغةِ والفَضْلِ.

ووجدناهمْ لم يَرْضَوْا بما فازُوا به من الفضلِ لأَنْفُسِهِمْ

(١) أوفر أي أكثر، اسم تفضيل من وفر المال، أي كثر وتمّ.
(٢) الأحلام: جمع حلم: العقل.

حتى أَشركونا مَعَهُمْ فيما أدركوا من علم الأُولى والآخِرةِ، فكتبوا به الكُتُبَ الباقيةَ، وضربوا الأمثالَ الشَّافيةَ، وكَفَوْنا بهِ مَؤُونَةَ التجارِبِ والْفِطَنِ[١].

وبلغَ من اهتمامِهم بذلك أَنَّ الرجلَ منهم كان يُفْتَحُ لهُ البابُ من العلم، والكلمةُ من الصَّوابِ ـ وهو في البلد غَيْرِ المأْهولِ ـ فَيَكْتُبُهُ على الصُّخُورِ مبادرةً منهُ للأَجلِ، وكراهِيَةً لأَن يَسقطَ ذلكَ على مَنْ بَعدَهُ[٢]. فكان صَنِيعُهُمْ في ذلكَ صنيع الوالدِ الشَّفيقِ على وَلَدِهِ، الرّحيم البَرِّ بِهِمْ، الذي يجمعُ لَهُمُ الأَموالَ والعُقَدَ[٣] إرادَةَ أَنْ لا يكونَ عليهِم مؤُونةٌ في الطَّلبِ، وخَشْيَةَ عَجزِهم إِنْ هُم طلبوا.

فَمُنْتَهَى عِلمِ عالِمِنا في هذا الزّمانِ أَنْ يَأْخُذَ من عِلمِهِمْ، وغاية إِحسانِ مُحسِننا أَنْ يَقْتَدِيَ بسِيرَتِهِم، وأحسنُ ما يُصيبُ من الحديثِ مُحدِّثُنا أَنْ يَنظَر في كتبِهم فيكونَ كأَنهُ إِيّاهم يُحاورُ[٤]، ومنهم يستمعُ.

---

(١) المؤونة: المشقة. والفطن: جمع فطنة، وهي الحذق.

(٢) يسقط على من بعده، أي يضيع عليه.

(٣) العقد: جمع عقدة، وهي العقار ونحوه، يقال: اعتقد فلان عقدة إذا اشترى ضيعة.

(٤) المحاورة: من حاور، المراجعة والمجادلة. وإياهم، مفعول يحاور، قدم عليه للحصر.

غيرَ أَنَّ الذي نَجِدُ في كتبِهِم هو الْمُنْتَخَلُ[١] من آرائهِمَ والمُنتقى مِنْ أَحاديثهِم. ولم نَجِدْهُمْ غادروا[٢] شيئاً يَجِدُ واصفٌ بليغٌ في صِفَةٍ له مقالاً لم يَسْبقوهُ إليه، لا في تعظيم اللَّه ـ عزّ وجلّ ـ وترغيبٍ فيما عندَه، ولا في تصغيرٍ للدنيا وتزهيدٍ فيها، ولا تحريرِ صُنُوفِ العلم، وتقسيم أَقْسَامِها، وتجزِئَةِ أَجزائِها وتوضيحِ سُبُلِها وتبيينِ مآخِذِها، ولا في وُجُوهِ الأَدبِ وضُرُوبِ الأَخلاقِ.

فلم يبقَ في جليلٍ من الأَمرِ لقائلٍ بَعْدَهُمْ مَقالٌ.

وقد بَقِيَتْ أَشياءُ مِنْ لطائفِ[٣] الأمور فيها مَواضِعُ لصغارِ الفِطَنِ مُشْتَقَّةٌ من جِسامِ حِكَمِ الأَوّلينَ وقَوْلِهم، ومن ذلك بعضُ ما أَنا كاتبٌ في كتابِي هذا مِنْ أبوابِ الأَدبِ التي يحتاجُ إليها الناسُ.

(١) المنتخل: من انتخل، المختار، وكذلك المنتقى، بمعناه أيضاً.
(٢) غادروا: من غادر، تركوا.
(٣) اللطائف: جمع لطيفة، وهي من الكلام ما غمض معناه وخفي.

أصول الأدب في الدين

يا طالبَ الأَدبِ! إعْرِفِ الأُصولَ ثُمَّ اطْلُبِ الفصولَ، فإنَّ كثيراً من الناسِ يَطْلُبُونَ الفُصُولَ مَعَ إضاعةِ الأصولِ، فلا يَكونُ دَرَكُهُمْ[١]. ومَنْ أَحرزَ الأصولَ اكْتَفَى بها عنِ الفُصولِ، وإِنْ أَصابَ الفَصْلَ بعدَ إِحرازِ الأَصْلِ، فهو أَفْضَلُ.

فأَصلُ الأَمرِ في الدينِ أَنْ تَعْتَقِدَ الإيمانَ على الصَّوابِ، وتَجْتَنِبَ الكبائرَ، وتُؤَدّيَ الفريضةَ. فالزمْ ذلك لزومَ مَنْ لا غَنَاءَ بِهِ عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ، ومَنْ يَعلمُ أَنَّهُ إِنْ حُرِمَهُ هَلَكَ. ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ على أن تُجَاوِزَ ذلك إِلى التَّفَقُّهِ في الدين والعبادةِ، فهو أَفضلُ.

وأصلُ الأمر في إِصلاحِ الجسدِ أَلَّا تَحْمِلَ عليهِ من المآكلِ والمشاربِ والْبَاهِ[٢] إلّا خِفَافاً، وإِنْ قَدَرْتَ على أَنْ تَعْلَمَ جميعَ منافعِ الجسدِ ومَضَارِّهِ، والانتِفاعَ بذلكَ، فهو أَفضلُ.

وأَصْلُ الأمرِ في البأْسِ أَلا تُحَدِّثَ نَفْسَكَ بالإِدبارِ[٣]

(١) دركهم: من درك، الوصول إلى الحاجة.
(٢) الباه: من باه، الجاه والعز.
(٣) الإدبار: من أدبر، هرب.

وأَصحابُكَ مُقْبِلونَ على عدوِّهم، ثم إِن قَدَرْتَ على أنْ تكونَ أوَلَ حاملٍ وآخِرَ مُنْصَرِفٍ، من غيرِ تضييعٍ للحَذَرِ، فهو أَفضلُ.

وأَصلُ الأمرِ في الجُودِ أَلّا تَضِنَّ[١] بالحقوقِ على أَهلها، ثم إنْ قَدَرْتَ على أَنْ تزيدَ ذا الحقِّ على حقِّه، وتَطُول[٢] على مَن لا حقَّ له، فهو أَفضلُ.

وأَصْل الأمرِ في الكلامِ أَنْ تَسْلَمَ مِنَ السَّقَطِ[٣] بالتَّحَفُّظِ، ثُمّ إِنْ قَدَرْتَ على بُلُوغِ الصَّوابِ، فهو أَفضلُ.

وأَصْلُ الأمرِ في المعيشةِ أَلَّا تَنيَ[٤] عنْ طَلَبِ الحلالِ، وأَنْ تُحْسِنَ التَّقديرَ لما تُفيدُ وما تُنْفِقُ. ولا يَغُرَّنَّكَ من ذلكَ سَعَةٌ تكونُ فيها؛ فإِنَّ أَعظمَ النَّاسِ في الدّنيا خَطَراً[٥] أحوجُهُمْ إلى التَّقدير؛ والملوكُ أحوجُ إِلى التَّقدير من السُّوقةِ[٦]؛ لأن السُّوقةَ قد تعيشُ بغيرِ مالٍ، والملوكُ لا قِوَامَ لهم إِلَّا بالمالِ.

(١) تضنّ: من ضنّ، بخل.
(٢) تطول: من طال، أي تمنن، من الطول وهو المن والإفضال.
(٣) السقط: من سَقَطَ (بفتحتين) الخطأ من القول والفعل.
(٤) تني: من ونى، أي لا تتوانى ولا تتكاسل ولا تقصر ولا تضعف ولا تفتر.
(٥) الخطر بالتحريك الشرف وارتفاع القدر.
(٦) السوقة بالضم الرعية من الناس.

ثُـمَّ إِنْ قَـدَرْتَ عـلـى الـرِّفْـقِ، والـلُّـطْـفِ فـي الـطَّـلَـبِ والـعـلـمِ بالمطالب، فهو أَفضلُ.

وَأَنـا واعِـظُـكَ فـي أَشـيـاءَ مـن الأخـلاقِ الـلّـطـيـفـةِ، والأُمـورِ الغامضةِ، الّتي لَوْ حَنَّكَتْكَ سِنٌّ كنتَ خليقاً[1] أَنْ تعلَمَهَا، وإِن لـم تُـخْـبَـرْ عـنـهـا. ولـكـنـي أَحْـبَـبْـتُ أَنْ أُقَـدِّمَ إِلـيـكَ فـيـهـا قَـوْلاً لترُوضَ[2] نفسَكَ على محاسِنِها قبلَ أَن تَجْرِيَ على عادةِ مَساوِيها، فإِنَّ الإنسانَ تَبْدُرُ إِليه في شبيبتِهِ المساوئُ، وقد يَغْلِبُ عليهِ ما يَبْدُرُ إليه منها.

(١) خليقاً: جديراً.

(٢) راض نفسه يروضها أي أكثر من مزاولتها لأمر من الأمور.

وصف الحذر

إذا تقلدت شيئاً من أمر السلطان وغيره

إنِ ابتُليتَ بالسُّلطانِ فتعوَّذْ بالعلماءِ. واعْلَمْ أَنَّ مِنَ العُجْبِ أَن يُبْتَلَى الرَّجُلُ بالسلُّطانِ فيُريد أَنْ يَنْقُصَ من ساعات نَصَبِهِ[١] وعملِهِ فَيَزِيدَها في ساعاتِ دَعَتِهِ[٢] وَشَهْوَتِه. وإِنَّما الرأْيُ لهُ والحقُّ عليه، أَنْ يأخذَ لعملِهِ من جميعِ شغلِهِ، فيأخذَ له من طعامِهِ وشَرابِهِ ونَوْمِهِ وحديثِهِ ولَهْوِهِ ونسائِهِ قَدْرَ ما يكونُ به إِصلاحُ جسمِهِ وتَقْوِيةٌ له على إتمام عملِهِ. وإنما تكونُ الدّعةُ بعدَ التّرفُّعِ.

فإِذا تقلّدتَ شيئاً من أمرِ السلطانِ فكنْ فيه أَحَدَ رَجُلَيْنِ: إِمّا رجلاً مُغْتَبِطاً بهِ، فَحَافَظَ عليه مخافةَ أَنْ يزولَ عنه؛ وإِمّا رجلاً كارِهاً له. فالكارِهُ عامِلٌ في سُخْرةٍ: إِمَّا للملوكِ، إِنْ كانُوا هُمْ سلَّطُوهُ، وإِمَّا للَّهِ تعالى إِنْ كانَ ليس فَوْقَهُ غيرُهُ.

وقد علمتَ أنّه مَنْ فَرَّطَ في سُخْرةِ الملوكِ أَهلكوهُ، فلا تَجْعَلْ للهلاكِ على نفسِكَ سلطاناً ولا سبيلاً.

---

(١) نصبه: من نَصَبَ، التعب، الإرهاق.

(٢) دعته: من دعا، ساعات دعته: ساعات خيره.

إِيَّاكَ ـ إذا كنتَ والياً ـ أنْ يكونَ من شأْنِكَ حُبُّ المدحِ والتَّزْكِيَةِ، وأنْ يَعْرِفَ النَّاسُ ذلكَ منك، فتكونَ ثُلْمَةً[١] من الثلَم يَتَقَحَّمُونَ[٢] عليكَ منها، وباباً يَفْتَتِحُونَكَ منه، وغيبَةً يَغْتَابُونَكَ بها، ويَضْحَكُونَ منك لها.

واعلمْ أَنَّ قابِلَ الْمدحِ كمادِحِ نفسِهِ. والمرءُ جديرٌ أَنْ يَكونَ حُبُّهُ المدحَ هو الذي يحمِلُهُ على ودِّهِ، فإِنَّ الرّادَّ له مَحْمُودٌ، والقابِلَ له مَعِيبٌ.

لِتَكنْ حاجَتُكَ في الولايةِ إلى ثَلاثِ خصالٍ: رِضَى ربِّكَ، ورِضَى سُلطانٍ، إنْ كان فَوْقَكَ، ورِضَى صالِحِ مَنْ تَلِي عليه. ولا عليكَ أَنْ تَلْهَى عَنِ المالِ والذِّكْرِ، فسيأْتيكَ منهما ما يكفي ويطيبُ.

واجعلِ الخِصالَ الثَّلاثَ بمكانِ ما لا بُدَّ لك منه، واجعلِ المالَ والذِّكرَ بمكانِ ما أَنتَ واجدٌ منهُ بُدّاً.

اعرفْ أهلَ الدينِ والمُروءَةِ في كلّ كُورةٍ[٣] وقريةٍ وقبيلةٍ، فَيَكُونُوا هُمْ إِخوانَكَ وأَعْوَانَكَ وبِطَانَتَكَ وثِقاتَكَ.

(١) ثلمة: من ثَلَمَ، هي الفرجة التي تكون في الحائط وما شابهها بسبب الهدم أو الكسر.

(٢) يتقحمون: من قحم، يتقحمون، أي يدخلون ويتهجمون عليه من هذه الثلمة.

(٣) الكورة بالضم: الصقع والمدينة.

المشورة

لا تَقْذِفَنَّ في روعِكَ[١] أَنَّكَ إنِ استَشَرْتَ الرِّجالَ ظهرَ منك الحاجةُ إلى رأْيِ غيرك؛ فإنَّكَ لستَ تُريدُ الرأْي للافتخارِ بهِ، ولكنْ تُريدُهُ للانتفاعِ بِهِ. ولَوْ أَنَّكَ مَعَ ذلك أَرَدْتَ الذِّكْرَ كانَ أَحْسَنَ الذِّكْرَيْنِ وأفْضَلَهُمَا عندَ أَهْلِ الفضلِ أَن يُقالَ: لا يَتَفَرَّد برأْيِهِ دونَ استشارةِ ذَوي الرَّأْيِ.

(١) الرُوْع بالضم: من راع، القلب والعقل.

رضى الناس

إنّكَ إنْ تَلتمِسْ رِضى جميعِ النَّاسِ تَلْتمِس ما لا يُدركُ: وكَيْفَ يَتَّفِقُ لك رأْيُ المُخْتَلفِين؟ وما حاجتُكَ إلى رضى مَن رضاهُ الجَوْرُ، وإلى مُوافَقةِ مَن مُوافقتُهُ الضلالةُ والجهالةُ؟ فعليكَ بالتماسِ رِضى الأَخيارِ منهم وذَوِي العقلِ، فإنّك متى تُصِبْ ذلك تَضَعْ عنكَ مَؤُونَةَ ما سِوَاهُ.

لا تُمكِّنْ أهلَ البَلاءِ الحسنِ عندَكَ مِن التَّذلُّلِ. ولا تمكِّنْ مَن سِواهُم من الاجْتِرَاءِ[١] عَلَيْهِمْ والعيبِ لهم. لِتُعَرِّفْ رعيَّتَكَ أبوابَكَ التي لَا يُنالُ ما عندَكَ مِنَ الخيرِ إلّا بها، والأَبوابَ التي يَخافُكَ خائِفٌ إلّا مِنْ قِبَلِها.

احرِصِ الحِرصَ كلَّهُ على أنْ تكونَ خبيراً بأمورِ عُمّالِكَ[٢]؛ فإنَّ المُسِيءَ يَفْرَقُ مِنْ خِبْرَتِكَ[٣] قبلَ أَنْ تُصِيبَهُ

(١) الاجتراء: من جرؤ، أقدم عليه، هجم.
(٢) العمال: جمع عامل، من عمل، وهو من يتقلد عملاً من أعمال الدولة. كالمحافظ والقائمقام اليوم.
(٣) يفرق: من فَرِقَ، يخاف. والخبرة: من خبر، العلم بالشيء.

عُـقـوبَـتُـكَ، وَإِنَّ الـمُـحْـسِـنَ يَـسْـتَـبْـشِـرُ بِـعِـلْـمِـكَ قَـبْـلَ أَنْ يَـأْتِـيَـهُ معروفُكَ.

لِيَعْرِفِ النَّاسُ ـ فيما يَعْرِفُونَ مِنْ أخلاقِكَ ـ أَنَّكَ لا تُعاجِلُ بالثَّوابِ ولا بالعِقَابِ؛ فإنَّ ذلك هو أدومُ لخوفِ الخائفِ، ورجاءِ الرّاجي.

موعظة جامعة

عَوِّدْ نفسَكَ الصَّبْرَ على مَنْ خالَفَكَ مِنْ ذوي النَّصِيحَةِ، والتَّجَرُّعِ[١] لِمَرارةِ قولِهِمْ وَعَذْلِهِمْ. ولا تُسَهِّلَنَّ سبيلَ ذلك إلّا لأَهلِ العقلِ والسِّنِّ والمرُوءةِ، لِئلّا يَنْتَشِرَ مِنْ ذلك ما يَجْتَرِئُ بهِ سَفيهٌ، أَوْ يَسْتَخِفُّ بِهِ شانئٌ[٢].

لا تَتْرُكَنَّ مُبَاشَرَةَ جَسِيمِ أَمرِكَ، فيعودَ شأْنُكَ صغيراً، ولا تُلزِمْ نفسَكَ مباشرةَ الصغيرِ، فَيَصيرَ الكبيرُ ضائعاً.

إِعلَمْ أَنَّ رَأْيَكَ لا يَتَّسِعُ لكلِّ شيءٍ، ففرِّغْهُ للمُهِمِّ؛ وأَنَّ مالَكَ لا يُغني الناسَ كلَّهُمْ فاخْتَصَّ به ذوي الحقوقِ، وأَنَّ كرامتَكَ لا تُطيقُ العامَّةَ فَتَوَخَّ بها أهل الفضائِلِ؛ وأَنَّ ليلَكَ ونهارَكَ لا يَسْتَوْعِبانِ حاجاتِكَ، وإِنْ دَأَبْتَ فيهما، وأَنَّهُ ليس لكَ إلى أدائِها سبيلٌ مَعَ حاجةِ جسدِكَ إلى نصيبِهِ من الدَّعةِ، فأَحْسِنْ قِسْمَتَهُما بين عملِكَ ودَعَتِكَ.

واعْلَمْ أَنَّكَ ما شَغلْتَ مِنْ رأْيِكَ في غيرِ المُهِمِّ أَزْرَى[٣]

(١) التجرع: من جرع، البلع، وهنا التقبّل بما يقولون.
(٢) شانئ: من شنأ، أي مبغض.
(٣) أزرى: من أزر، أحاط بالشيء، اعتنى به.

بالمُهِمِّ، وما صَرفْتَ مِنْ مالِكَ بالباطلِ فقَدْتَهُ حِينَ تُرِيدُهُ للحقِّ، وما عَدَلْتَ به مِنْ كرامتِكَ إلى أَهْلِ النَّقْصِ أضَرَّ بِكَ في العَجْزِ عن أَهلِ الفَضْلِ، وما شَغَلْتَ من ليلِكَ ونهارِكَ في غَيْرِ الحاجةِ أزْرَى بكَ في الحاجةِ.

اعْلَمْ أَنَّ مِنَ النَّاسِ ناساً كثيراً يبلُغُ من أحدِهِم الغضب ـ إذا غَضِبَ ـ أَنْ يَحْمِلَهُ ذلك على الكُلُوحِ[١] والتَّقْطِيبِ في غير مَنْ أَغْضَبَهُ، وسوءِ اللَّفظِ لِمَنْ لا ذَنْبَ له، والعُقوبةِ لِمَنْ لم يكُنْ يَهُمُّ بِعُقوبَتِهِ، وشِدَّةِ المعاقبَةِ باللّسانِ واليدِ لِمَن لم يكُنْ يريدُ بهِ إلَّا دونَ ذلك. ثُمَّ يَبْلُغُ بهِ الرِّضَى ـ إذا رَضِيَ ـ أَنْ يَتَبَرَّعَ بالأمرِ ذي الخَطَر[٢] لِمَنْ ليس بمنزلةِ ذلك عندَهُ، ويُعطي مَنْ لم يَكنْ يريدُ إعطاءَهُ، ويُكْرِمُ مَنْ لا حَقَّ له ولا مودَّةَ.

فاحْذَرْ هذا البابَ الحَذَرَ كُلَّهُ! فإنَّهُ ليسَ أحدٌ أَسْوَأَ حالاً مِنْ أَهلِ القُدْرَةِ الذين يُفْرِطونَ باقتدارِهِمْ في غَضَبِهم ورِضَاهُم؛ فإنّه لوْ وُصِفَ بهذِهِ الصِّفَةِ مَنْ يُلْتَبَسُ بعقلِهِ، أَو يَتَخَبَّطُهُ الْمَسُّ، أَنْ يُعاقِبَ في غَضَبِهِ غيرَ مَنْ أَغْضَبَهُ، ويَحْبُوَ[٣] عندَ رِضاه غَيْرَ مَنْ أرْضَاهُ، لَكانَ جائِزاً في صِفَتِهِ.

(١) الكلوح والكلاح «بضم الكاف» التكشر في عبوس، من كلح.
(٢) الخطر: من خطر، (أن يعطي السبق لعظيم القدر والقيمة).
(٣) حبا يحبو حبوة: أعطى. والحباء: العطاء.

أقسام الملك

إعلَمْ أَنَّ المُلْكَ ثلاثةٌ: مُلْكُ دينٍ، ومُلْكُ حزمٍ، ومُلْكُ هوًى.

فأَمَّا مُلْكُ الدِّينِ فإِنَّهُ إِذا أُقِيمَ لأَهْلِهِ دينُهُمْ، وكانَ دينُهُمْ هُوَ الّذي يُعطِيهِمْ ما لَهُم، ويُلْحِقُ بِهِمُ الّذي عَلَيْهِمْ[1]، أرْضاهُمْ ذلك، ونَزَلَ السَّاخِطُ منْهُمْ مَنْزِلَةَ الرَّاضي في الإقرارِ والتَّسْليم.

وأَمَّا مُلْكُ الحَزْمِ فإِنَّهُ يَقُومُ به الأمرُ. ولا يَسْلَمُ مِنَ الطَّعْنِ والتَّسَخُّطِ. ولَنْ يَضُرَّ طَعْنُ الذَّليلِ مَعَ حَزْمِ القويِّ.

وأَمَّا مُلْكُ الهَوى فلعبُ ساعةٍ ودَمارُ دَهْر.

(١) الذي عليهم: أي ما عليهم أن يؤدوا من المال للملك.

الدولة الجديدة

إذا كان سلْطانُكَ[١] عند جِدَّةِ دولةٍ، فرأيتَ أمراً استقامَ بغيرِ رأْيٍ، وأَعْوَاناً جَزَوْا[٢] بغير نَيل[٣]، وعملاً أَنْجَحَ[٤] بغير حزم، فلا يَغُرَّنَّكَ ذلك، ولا تَسْتَنِم[٥] إليه. فإنَّ الأمرَ الجديدَ مِمَّا تَكُونُ له مَهابة في أنْفُسِ أقوام، وحلاوةٌ في أنفُسِ آخرينَ، فيُعِينُ قومٌ بأنفسهم، ويُعينُ قومٌ بما قِبَلَهُمْ[٦]. وَيَستَتِبُّ بذلك الأمرُ غيرَ طويلٍ. ثُمَّ تَصِيرُ الشؤونُ إلى حقائِقِهَا وأُصُولِها. فما كانَ مِنَ الأمرِ بُنيَ على غيرِ أركانٍ وَثيقَةٍ، ولا عِمادٍ مُحْكَمٍ، أوْشَكَ أَنْ يَتَداعى ويَتَصَدَّعَ[٧].

---

(١) السلطان: السلطة والولاية.

(٢) جزوا: من جزى، كافأوا.

(٣) النيل: من نال، العطاء.

(٤) أنجح: من نجح، والنجح: الظفر بالشيء.

(٥) استنام: من نام، اطمأن، سكن.

(٦) بما قبلهم: أي بما عندهم.

(٧) أركان: من ركن، جمع ركن. وركن الشيء: جانبه الأقوى. والوثيق: من وثق، المحكم المتقن. والعماد من عَمَدَ، هو ما يسند به البناء الرفيع، مفرده عمادة. ويتداعى: من داعى، أي يتهدم. ويتصدع: من صَدَّعَ، أي يتشقق.

لا تكُونَنَّ نَزْرَ الكلامِ والسَّلامِ، ولا تفْرِطَنَّ بالهَشَاشَةِ والبَشَاشَةِ؛ فإنّ إحداهُما[١] مِنَ الكِبْر، والأُخْرَى[٢] مِنَ السُّخْفِ.

(١) الهشاشة: من هَشَّ، والبشاشة من بَشَّ: قلة الكلام والسلام.

(٢) السَّخف: من سخف، ضعف العقل، وهنا مجاوزة الحد في الهشاشة والبشاشة.

الأصحاب غير الثقات

إذا كُنْتَ لا تَضْبِطُ أَمْرَكَ، ولا تَصولُ على عدوِّك، إلَّا بقوْمٍ لَسْتَ مِنْهُمْ على ثِقَةٍ مِنْ رأْيِ، ولا حِفاظٍ من نيَّةٍ، فلا تَنْفَعُكَ نافِعَةٌ حتى تُحَوِّلَهُمْ ـ إن اسْتَطَعْتَ ـ إلى الرأْيِ والأَدَبِ الذي بمثْلِهِ تَكُونُ الثِّقةُ، أو تَسْتَبْدِلَ بِهِمْ، إنْ لم تَسْتَطِعْ نَقْلَهُمْ إلى ما تُريد. ولا تَغُرَّنَّكَ قُوَّتُك بهمْ على غيرِهِمْ وإنّما أنتَ في ذلك كَرَاكِبِ الأَسَدِ الذي يَهَابُهُ مَنْ نظر إليه، وهو لِمَرْكَبِهِ أَهْيَبُ.

لَيْسَ لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْضَبَ، لأَنَّ القُدرةَ مِنْ وَرَاءِ حاجتِهِ.

ولَيْسَ له أَنْ يَكْذِبَ، لأَنَّهُ لا يَقْدِرُ أَحَدٌ على اسْتِكْرَاهِهِ على غيرِ ما يُريدُ.

ولَيْسَ له أنْ يَبْخَلَ، لأنهُ أَقلُّ النَّاسِ عُذْراً في تَخوُّفِ الفَقْرِ.

وَلَيْسَ له أنْ يكونَ حَقُوداً، لأَنَّ خَطَرَه[1] قَدْ عَظُمَ عن مجازَاةِ كلِّ الناسِ.

---

(١) خطره: من خطر، أي قدره وجاهه.

وَلْيَتَّقِ أنْ يكونَ حَلَّافاً؛ فأَحَقُّ الناسِ باتِّقاءِ الأَيْمَانِ المملوكُ، فإنّما يَحْمِلُ الرَّجُلَ على الحَلْفِ إحْدَى هذهِ الخِلَالِ: إمَّا مَهَانَةٌ يَجِدُها في نفسِهِ، وضَرَعٌ[١]، وحاجةٌ إلى تَصْدِيق النَّاسِ إيَّاهُ، وإمَّا عِيٌّ[٢] بالكلام، حتَّى يَجْعَلَ الأَيْمانَ له حَشْواً وَوَصْلاً، وإمَّا تُهْمَةٌ قد عَرَفَهَا من الناسِ لِحَديثِهِ، فهو يُنْزِلُ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ من لا يُقْبَلُ منه قولُهُ إلّا بعد جَهْدِ اليمين، وإمَّا عَبَثٌ في القولِ، أَوْ إرسالُ اللِّسَانِ على غيرِ رَويّة ولا تقدير.

كُلُّ النَّاسِ حَقيقٌ ـ حينَ يَنْظُرُ في أَمْرِ النَّاسِ ـ أنْ يَتَّهِمَ نَظَرَه بعينِ الرِّيبةِ[٣]، وقلبَهُ بعينِ الْمَقْتِ[٤] فإنّهما يُزَيِّنانِ الْجَوْرَ[٥]، ويَحْمِلانِ على الباطلِ، ويُقَبِّحانِ الحَسَنَ، ويُحَسِّنانِ القبحَ. وأحقُّ النَّاسِ باتّهامِ عينِ الرِّيبة وعَيْنِ الْمَقْتِ، الملكُ الذي ما وقَعَ في قلبِهِ رَبا[٦] مَعَ ما يُقَيَّضُ له من تَزْيينِ القُرنَاءِ والوزُرَاءِ.

---

(١) ضَرَعٌ: من ضَرِعَ، الخضوع والاستكانة.
(٢) عي، أي عجز وحصر، وهو مصدر عَيَّ يَعَيُّ أي عجز عن الكلام.
(٣) الريبة بالكسر: من راب، الشك.
(٤) المقت: من مقت، البغض والكراهة.
(٥) الجور: من جار، الظلم وتجاوز الحد.
(٦) ربا، يربو: زاد ونما.

وأَحَقُّ النَّاسِ بإِجْبَارِ نَفْسِه على العَدْلِ؛ في النَّظَرِ والقَوْلِ والفِعْلِ، الوالي الذي بِعَدْلِهِ يَعْدِلُ مَنْ دونَهُ، والَّذي ما قالَ أَوْ فَعَلَ كانَ أمْراً نَافِذاً غَيْرَ مرْدُودٍ.

ولا عَيْبَ على الْمَلِكِ في تَعَيُّشِهِ وتَنَعُّمِهِ، إذا تَعَهَّدَ الجَسِيمَ من أَمْرِهِ، وفَوَّضَ ما دونَ ذلك إلى الكُفَاةِ[١].

لِيَعْلَم الوالي أَنَّ الناسَ يَصِفُونَ الوُلاةَ بسُوءِ العَهْدِ[٢] ونِسْيَانِ الوُدِّ، فَلْيُكَابِدْ نقضَ قولِهِمْ، وليُبْطِلْ عَنْ نفسِهِ وَعَنِ الوُلاةِ صفاتِ السُّوءِ التي يُوصَفُونَ بها.

حَقُّ الوالي أَنْ يَتَفَقَّدَ لطيفَ أُمورِ رعيَّتِهِ فَضْلاً عَنْ جَسِيمِها؛ فإِنَّ للَّطِيفِ مَوْضِعاً ينتفعُ بِهِ، وللجسيمِ موضعاً لا يَسْتَغني عَنْهُ.

لِيَتَفَقَّدِ الوالي ـ فيما يَتَفَقَّدُ مِنْ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ ـ فَاقَةَ الأحرارِ منهم، فَلْيَعْمَلْ في سَدِّها؛ وطُغْيَانَ السِّفَلةِ مِنْهُمْ، فَلْيَقْمَعْهُ[٣]، وَلْيَسْتَوْحِشْ من الكريمِ الجامعِ، واللَّئيمِ الشَّبْعَانِ؛ فإنّما يَصولُ[٤] الكريمُ إِذا جاعَ، واللئيم إذا شَبعَ.

---

(١) الكفاة: الذين يقومون بالخدمة. جمع كاف.
(٢) العهد: الأمان والموثق.
(٣) فليقمعه: من قمع، قهر وذَلّ.
(٤) يصول: من صال، يثب.

لا يَحْسُدَنَّ الوالي مَنْ دُونَهُ، فإنّهُ في ذلك أقلُّ عُذْراً مِنَ السُّوقَةِ التي إنّما تَحْسُدُ مَنْ فَوْقَها، وكلٌّ لا عُذْرَ لَهُ.

لا يَلُومَنَّ الوالي على الزَّلَةِ مَنْ ليس بِمُتَّهَم على الحِرْصِ على رِضاهُ، إلّا لَوْمَ أدَبٍ وتَقْويم. ولا يَعْدِلَنَّ[١] بالمُجْتَهِدِ في رضاهُ، البصيرِ بِما يأْتي، أَحَداً، فإنَّهما[٢] إذا اجْتَمَعَا في الوزيرِ أَوِ الصَّاحبِ نامَ الوالي واسْتَرَاحَ، وجُلِبَتْ إليه حاجاتُهُ، وإنْ هَدَأَ عَنْها؛ وعُمِلَ فيما يهمُّهُ وإنْ غَفَلَ.

لا يُولَعَنَّ الوالي بسوءِ الظَّنِّ لقولِ الناسِ، ولْيَجْعَلْ لِحُسْنِ الظَّنِّ مِنْ نَفْسِهِ نَصيباً مَوْفُوراً يُرَوِّحُ[٣] بهِ عَنْ قَلبِهِ ويُصْدِرُ بِهِ أعمالَهُ.

لا يُضِيعَنَّ الوالي التثبُّتَ عندَما يَقُولُ وعندَما يُعطِي وعندَما يَفْعَلُ، فإنَّ الرُّجُوعَ عَنِ الصَّمْتِ أَحْسَنُ مِنَ الرُّجُوعِ عَنِ الكلام، وإنَّ العطيَّةَ بعدَ الْمَنْعِ أجْمَلُ مِنَ الْمَنْعِ بَعْدَ الإعْطاءِ، وإنَّ الإقدامَ على العملِ بعدَ التأنِّي فيه أَحْسَنُ مِنَ الإمْسَاكِ عَنْهُ بعدَ الإقدامِ عليهِ. وكلُّ النَّاسِ مُحْتاجٌ إلى التثبُّتِ، وأَحْوَجُهُمْ

(١) عدل الرجل فلاناً بفلان، إذا سوّى بينهما.
(٢) أي المجتهد في رضاه والبصير بما يأتي.
(٣) يروح: من روَّح، يخفف به عن نفسه وينفس عن قلبه.

إليهِ ملوكُهُمُ الذينَ ليسَ لقولِهِمْ وفعلِهِمْ دافعٌ، وليس عَلَيْهِمْ مُستَحِثٌّ[١].

لِيَعْلَم الوالي أَنَّ الناسَ على رَأْيِهِ، إِلّا مَنْ لا بَالَ[٢] له مِنْهُمْ. فَلْيَكُنْ لِلْبِرّ والمُروءَةِ عِنْدَهُ نَفَاقٌ[٣]، فَيَكْسُدُ بذلكَ الجَوْرُ والدَّناءةُ في آفاقِ الأَرْضِ.

جِمَاعُ ما يَحْتَاجُ إليه الوالي مِنْ أَمْر الدنيا رأيانِ: رَأْيٌ يُقَوِّي سُلْطَانَهُ، ورأْيٌ يُزَيِّنُهُ في النَّاسِ. ورأيُ القُوَّةِ أحقُّهما بالبُداءَةِ وأَوْلاهُما بالأثَرَةِ[٤]، ورأيُ التزيينِ أحْضَرُهُما حَلَاوَةً، وأكْثَرُهُما أعْواناً، مَعَ أنَّ القُوَّةَ مِنَ الزِّينةِ، والزِّينةَ مِنَ القُوّةِ، ولَكِن الأَمْرُ يُنْسَبُ إلى أَعْظَمِهِ.

(١) المستحث: من حث، من يحض على شيء وينشّطه على فعله.
(٢) لا بال له، أي لا شأن له يهتم به.
(٣) نفاق: من نَفَقَ، رواج.
(٤) الأثرة: من أثِرَ، الاختيار والتفضيل.

صحبة السلطان

إِنْ شُغِلْتَ بِصُحْبَةِ المُلوكِ فعليكَ بِطولِ المُرابطةِ في غير مُعاتَبَةٍ، ولا يُحْدِثَنَّ لكَ الاسْتِئْناسُ غَفْلَةً ولا تَهَاوُناً.

إِذا رَأَيْتَ السُّلْطانَ يَجْعَلُكَ أخاً فاجْعلْهُ أباً، ثُمَّ إِنْ زَادَكَ فَزِدْهُ.

إِذا نَزَلْتَ مِنْ ذِي مَنْزِلَةٍ أَوْ سُلْطَانٍ، فلا تَرَيَنَّ أَنَّ سُلْطانهُ زَادَكَ لَهُ تَوْقِيراً وإِجْلالاً، مِنْ غيرِ أَنْ يَزِيدَكَ وُدّاً ولا نُصْحاً، وأَنَّكَ ترَى حَقّاً له التَّوْقِيرَ والإِجْلالَ. وكُنْ في مُداراتِهِ والرِّفْقِ بِهِ كالمُؤْتَنِفِ[١] ما قبلَهُ. ولا تُقَدِّرِ الأَمرَ بينَكَ وبينَهُ على ما كنتَ تَعْرِفُ من أَخلاقِهِ؛ فإِنَّ الأخلاقَ مستحيلةٌ[٢] مَعَ المُلْكِ، وربّما رأَيْنَا الرَّجُلَ المُدِلَّ[٣] على ذي السُّلطانِ بِقَدِمِهِ قد أَضَرَّ به قِدَمُهُ.

إِن استطعتَ أَلّا تَصْحَبَ مَنْ صَحِبْتَ مِنْ الولاةِ إِلّا على شُعْبَةٍ مِنْ قَرابَةٍ أو مَوَدَّةٍ فافعَلْ. فإِنْ أخطأَك ذلك فاعلمْ أَنكَ

(١) إئتنف واستأنف، واحد: أخذ وابتدأ.
(٢) مستحيلة: من استحال، أي متحولة.
(٣) المدل: من أَدَلّ، المنبسط، المتدلل، الواثق بمحبة من يحب.

إنما تَعْمَلُ على عملِ السُّخرة. وإن استطعتَ أن تجعَلَ صُحْبَتَكَ لِمَنْ قَدْ عَرَفَكَ منهم بصالِحِ مُرُوءَتِكَ قبلَ وِلَايتِهِ فافعل، فَإِنَّ الواليَ لا عِلْمَ له بالنَّاسِ إِلَّا ما قَدْ عَلِمَ قَبْلَ وِلايَتِهِ، فأَمَّا إذا وَلِيَ فكلُّ الناسِ يَلقاهُ بالتزيُّنِ والتَّصَنُّعِ، وكلُّهم يحتالُ لأَنْ يُثْنِيَ عليه عندَهُ بما ليسَ فيهِ، غيرَ أَنَّ الأنذالَ والأرذالَ هُمْ أشدُّ لذلك تَصَنُّعاً، وعليه مُكَابَرَةً، وفيه تَمَحُّلاً. فلا يَمْتَنِعُ الوالي ـ وإنْ كانَ بليغَ الرأْيِ والنَّظَرِ ـ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ عندَهُ كثيرٌ مِنَ الأشرارِ بمنزلةِ الأخيارِ، وكثيرٌ مِنَ الخانةِ[١] بمنزلةِ الأُمَنَاءِ، وكثيرٌ من الغَدَرَةِ[٢] بمنزلةِ الأَوفياءِ، ويُغَطَّى عليهِ أَمْرُ كثيرٍ مِنْ أَهْلِ الفَضْلِ الذينَ يَصُونونَ أَنفسَهُم عَنِ التَّمَحُّلِ[٣] والتَّصَنُّعِ.

لا يَعْرِفَنَّكَ الوُلاةُ بالهَوَى في بَلْدَةٍ من البُلْدَانِ، ولا قبيلةٍ مِنَ القبائلِ، فيُوشِك أَنْ تَحْتاجَ فيهما إلى حكايةٍ أو مُشَاهَدَةٍ، فتُتَّهَمَ في ذلك.

وإذا أردتَ أن يُقْبَلَ قولُك، فصحِّحْ رأيَكَ ولا تَشُوبَنَّهُ[٤]

(١) الخانة: من خان، جمع خائن. مثل الخونة والخائنين، خان العهد ونقضه.

(٢) الغدرة: من غَدر، كفجرة، جمع غادر، كفاجر، خان العهد ونقضه.

(٣) التمحل: من تَمَحَّل، الاحتيال في الطلب.

(٤) لا تشوبنه: من شاب، لا تخلطنه.

بشيءٍ مِنَ الهَوَى، فإنَّ الرأْيَ يَقْبَلُهُ مِنْكَ العَدُوُّ، والهوى يَرُدُّهُ علَيكَ الولِيُّ.

وأَحَقُّ[١] مَنِ احْتَرَسْتَ مِنْهُ، مِنْ أَنْ يَظُنَّ بك خَلْطَ الرأيِ بالهَوَى، الولاةُ؛ فإنَّها خديعةٌ وخيانةٌ وكُفْرٌ عندَهُمْ.

إنِ ابتلِيتَ بِصُحْبَةِ والٍ لا يُريدُ صلاحَ رعيَّتِهِ، فاعلَمْ أَنكَ قَدْ خُيِّرْتَ بينَ خَلَّتينِ[٢] ليس منهُما خِيَارٌ: إمَّا مَيْلُكَ مع الوالي على الرَّعيَّةِ، وهذا هَلاكُ الدِّينِ؛ وإمَّا الْمَيْلُ مَعَ الرَّعيَّةِ على الوَالي، وهذا هَلاكُ الدّنيا؛ ولا حيلةَ لَكَ إلّا بالموتِ أَوِ الْهَرَبِ.

واعْلَمْ أَنَّهُ لا ينبغي لَكَ ـ وإنْ كانَ الوالي غيرَ مَرْضِيِّ السِّيرةِ، إذا عَلِقَتْ حِبالُكَ بِحَبْلِهِ ـ إلّا المُحَافَظَةُ عليهِ، إلَّا أَنْ تَجِدَ إلى الفِراقِ الجميلِ سَبيلاً.

تَبصَّرْ ما في الوالي مِنَ الأخلاقِ الّتي تُحَبُّ له والّتي تُكْرَهُ، وما هُوَ عليهِ من الرأي الّذي يُرْضَى لَهُ والَّذي لا يُرْضى، ثُمَّ لا تُكَابِرْهُ بالتَّحْويلِ له عَمَّا يحِبُّ ويكرَهُ إلى ما تُحِبُّ وتَكْرَهُ، فإنَّ هذهِ رياضَةٌ صَعْبَةٌ تَحْمِلُ على التَّنَائِي والقِلَى[٣].

(١) أحق: مبتدأ؛ وخبره: الولاة.

(٢) الخلة: الخصلة.

(٣) التنائي: من نأى، التباعد. والقلى: من قلى، البغض.

وَإِنَّكَ قَلَّما تَقْدِرُ على رَدِّ رَجُلٍ عَنْ طريقتِهِ الّتي هو عليها بالمُكابَرَةِ، والمناقضَةِ[١]، وإنْ لم يكن ممَّنْ يَجْمَحُ به عِزُّ السُّلطانِ، ولكنَّكَ تَقْدِرُ أَنْ تُعينَهُ على أحْسَنِ رأيِهِ وتُسَدِّدَه فيه وتُزَيِّنَهُ وتُقَوِّيَهُ عليْهِ. فإذا قَوِيَتْ مِنْهُ الْمَحَاسِنُ كَانتْ هي التي تكفُّهُ عن الْمَساوي[٢]. وإذا اسْتَحْكَمَتْ منه ناحِيةٌ مِنَ الصَّوابِ كانَ ذلكَ هُوَ الّذي يُبْصِرُهُ الخطأَ بأَلْطَفَ مِنْ تَبصيرِكَ، وأعدلَ مِنْ حُكْمِكَ في نفسِهِ؛ فإنَّ الصوابَ يُؤَيِّدُ بَعْضُهُ بَعْضاً، ويدعو بعضُهُ إلى بعضٍ، حتَّى تَسْتَحْكِمَ لصاحبه الأشياءُ، ويظهرَ عليها بتَحْكِيمِ الرَّأْيِ. فإذا كانَتْ لهُ مكانةٌ من الأصالة اقْتَلَعَ ذلك الخطأ كُلَّهُ.

فاحْفَظْ هذا البابَ وأَحْكِمْهُ.

وَلَا يَكُونَنَّ طَلَبُكَ ما عندَ الوالي بالمسأَلةِ[٣]، ولا تَسْتَبْطِئْهُ، وإنْ أَبْطأَ. ولكِن اطْلُبْ ما قِبَلَهُ بالاستحقاقِ لهُ[٤]، واستأْنِ[٥]

(١) المكابرة: من كابر، المنازعة والمجادلة، والمناقضة: من نقض، إبطال أحد القولين بالآخر.

(٢) المساوي: من ساء، جمع المساءة، ضد المسرّة، النقائص والمعايب.

(٣) السؤال.

(٤) اطلب ما عنده، على كونك مستحقاً له.

(٥) استأنى في الأمر: تأنى فيه ولم يعجل، والاسم من هذا الفعل، أناة أي الصبر.

وإنْ طالتِ الأناةُ. فإنَّكَ إذا اسْتَحْقَقْتَهُ أَتَاكَ منْ غيرِ طَلَبٍ، وإنْ لَمْ تَسْتَبْطِئْهُ كانَ أَعْجَلَ لَهُ.

لا تُخَبِرَنَّ الواليَ أنّ لك عليه حقاً، وأنَّكَ تَعْتَدُّ عليه بِبَلاءٍ[١]. وإنِ استطعتَ أنْ يَنْسَى حقّكَ وبَلَاءَكَ فافْعَلْ. ولْيَكُنْ ما تَذْكُرُهُ مِنْ ذلك تجديدَكَ له النصيحةَ والاجتهادَ، وألَّا يزالَ ينظُرُ منكَ إلى آخِرٍ يُذَكِّرُهُ أوَّلَ بَلائِكَ.

واعْلَمْ أَنَّ وليَّ الأَمْر إذا انقطعَ عنه الآخِرُ نَسِيَ الأَوَّلَ، وأنَّ أرحامَهُمْ مقطوعةٌ، وحِبالَهُمْ مصرومةٌ، إلَّا عمَّنْ رَضُوا عنهُ، وأَغْنَى[٢] عنهم في يومِهِمْ وساعَتِهِمْ.

إيَّاكَ أَنْ يَقَعَ في قلبِكَ تَعَتُّبٌ[٣] على الوالي أوِ اسْتِزْراءٌ لَهُ؛ فإنَّه إنْ آنسْت أن يَقَعَ في قلبِكَ بَدا في وَجهِكَ إنْ كُنْتَ حَليماً، وبدا على لسانِكَ إنْ كنتَ سفيهاً. وإنْ لَم يَزِدْ ذلك على أَنْ يَظْهَر في وجهِكَ لآمَنِ الناسِ عندَكَ، فلا تَأْمَنَنَّ أَنْ يَظْهَرَ ذلكَ للْوالي؛ فإنَّ الناسَ إليه بعورات الإخوانِ سِراعٌ. فإذا ظَهَرَ ذلكَ للوالي كان قلبُهُ هو أسرعَ إلى التَّعَتُّبِ والتَّعَزُّزِ من قلبِكَ، فَمَحَقَ ذلك حَسَنَاتِكَ الماضِيةَ، وأَشْرَفَ بك على

(١) البلاء: الصنع الحسن والصنع السيِّئ، والمراد به هنا الصنع الحسن.
(٢) أغنى عنهم: قام مقامهم، ناب عنهم.
(٣) التعتب: من عتب، المعاتبة. اللّوم.

الهلاكِ، وصِرْتَ تَعْرِفُ أَمْرَكَ مُسْتَدْبِراً، وتَلْتَمِسُ مَرْضَاتَهُ مُسْتَصْعِباً. ولو شِئتَ تركتَهُ بإذنِ اللَّهِ راضياً، وازْدَدْتَ من رضاهُ دُنُواً.

اِعلَمْ أَنَّ أكثرَ النَّاسِ عَدُوّاً مُجاهراً حاضراً جريئاً واشياً، وزيرُ[١] السُّلْطانِ ذو المكانَةِ عندَهُ؛ لأَنَّهُ منفوس[٢] عليه بما يُنْفَسُ على صاحبِ السلطانِ، ومحسودٌ كما يُحْسَدُ. غيرَ أنهُ يُجْتَرَأْ عليهِ ولا يُجْتَرَأُ على السُّلطانِ؛ لأَنَّ مِن مُحاسِديه أحِبَّاءَ السُّلْطانِ الذين يُشارِكُونَهُ في الْمَداخِل والمنازِلِ، وهُمْ وغيْرُهُم مِنْ عَدُوِّهِ الذين هُم حُضَّارُهُ، وليْسُوا كَعَدُوٍّ مَنْ فَوْقَهُ النَّائي عنه المُتَكَتّم منهُ، وهُم لا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُمْ مِنَ الظَّفَرِ بهِ، فلا يَغْفَلُونَ عَنْ نَصْبِ الحَبَائِلِ لهُ.

فاعرفْ هذِهِ الحالَ والبَس لهؤلاءِ القوم الذينَ هُمْ أعداؤُكَ سِلَاحَ الصِّحَّةِ والاستقامةِ، ولُزومِ الحُجَّةِ فيما تُسِرُّ وتُعْلِنُ؛ ثُمَّ رَوِّحْ مِنْ قَلْبِكَ كأَنَّهُ لا عدُوَّ لَكَ ولا حاسِدَ.

وإِنْ ذَكَرَكَ ذاكرٌ عندَ وليِّ الأَمْرِ بسُوءٍ في وجهِكَ أو في غيْبِكَ، فلا يَرَيَنَّ منكَ الوليُّ ولا غيرُهُ اخْتِلاطاً لذلك ولا اغْتِياظاً ولا ضجَراً، ولا يَقَعَنَّ ذلك في نفسِك

(١) وزير السلطان: خبر أن.
(٢) منفوس: من نَفُسَ، مرغوب فيه.

مَوْقِعَ ما يَكْرِثُكَ[١]، فإنَّهُ إنْ وَقَعَ منك ذلكَ الموقِعَ أَدْخَلَ عليكَ أُموراً مُشْتَبِهَةً بالرَّيْبِ، مُذَكِّرَةً لِما قالَ فيكَ العائِبُ. وإنِ اضْطَرَّكَ الأَمْرُ في ذلِك إلى الجوابِ، فإيَّاكَ وَجَوابَ الغَضَبِ والانتقام؛ وعليكَ بجوابِ الحُجَّةِ، في حِلْمٍ ووقارٍ، ولا تَشُكَّنَّ في أنَّ الغَلَبَةَ والقُوَّةَ للحِلْمِ أَبَداً.

لا تُحْضِرَنَّ عندَ الوالي كلاماً لا يَعْنِي ولا يُؤْمَرُ بحضورِهِ إلَّا لِعِنَايَةٍ به، أو يكون جواباً لشيءٍ سُئِلْتَ عنه.

ولا تَعُدَّنَ شَتْمَ الوالي شَتْماً، ولا إغْلاظَهُ إغْلاظاً، فإنَّ ريحَ العِزِّ قد تَبْسُطُ اللِّسَانَ بأَلْفَاظٍ في غَيْرِ سَخَطٍ ولا بَأْسٍ.

جانِبِ الْمَسْخُوطَ عليهِ والظَّنِينَ[٢] به عند الوُلاةِ، ولا يَجْمَعَنَّكَ وإيَّاهُ مَجْلِسٌ، ولا تُظْهِرَنَّ لَهُ عُذْراً، ولا تُثْنِيَنَّ عليهِ خَيْراً عندَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، فإذا رأيتَهُ قد بلغَ مِنَ الإعْتَابِ[٣] بِمَّا سُخِطَ عليه فيهِ ما تَرْجو أن تُلينَ له بهِ قلبَ الوالي، واسْتَيْقَنْتَ أنّ الواليَ قَدِ اسْتَيْقَنَ بِمُبَاعَدتِكَ إيَّاهُ وشدَّتِكَ عليهِ

(١) يكرثك: من كَرَثَ، كرثه الغم يكرثه «بكسر الراء وبضمّها»: اشتد عليه، بالى به.

(٢) الظنين: من ظَنَّ، الظنة: بالكسر وتشديد النون المفتوحة: التهمة، والظنين: المتهم.

(٣) الإعتاب: الرجوع عن الإساءة إلى المسرّة.

عندَ النَّاسِ، فَضَعْ عُذْرَهُ عندَ الوالي، واعْمَلْ في إرضائِهِ عنه في رِفْقٍ ولُطْف.

لِيَعْلَم الوالي أَنَّكَ لا تَسْتَنْكِفُ عن شيءٍ من خدمتِهِ، ولا تَدَعْ معَ ذلك أَنْ تقدِّمَ إليه القولَ ـ عندَ بعضِ حالاتِ رِضاهُ وطيب نَفْسِهِ ـ في الاسْتِعْفَاءِ من الأَعمالِ التي يَكْرَهُهَا ذو الدِّينِ وذو العقلِ وذو العِرْضِ وذو المُروءَةِ، مِنْ ولايةِ القَتْلِ والعذابِ وأَشباهِ ذلك.

إذا أَصَبْتَ الجاهَ والخاصّةَ عندَ الْمَلِكِ، فلا يُحْدِثَنَّ لك ذلكَ تَغيُّراً على أَحَدٍ من أهلِهِ وأعوانِهِ، ولا اسْتِغْنَاءً عنهُمْ؛ فإنّك لا تَدْري مَتَى تَرى أَدْنى جَفْوَةٍ أو تغيُّرٍ فَتَذِلَّ لهم فيها. وفي تلوُّنِ الحالِ عندَ ذلكَ مِنَ العارِ ما فيهِ.

لِيَكُنْ مما تُحكِمُ[1] من أمْرِكَ أَنْ لا تُسَارَّ[2] أحداً من النّاسِ، ولا تَهْمِسَ إليه بشيءٍ عند السُّلطان. فإن السِّرارَ يُخَيَّلُ إلى كلِّ مَنْ رآهُ، مِنْ ذي سُلطانٍ أو غيرِهِ أَنّه المرادُ بهِ، فيكون ذلكَ في نفسِهِ حَسيكةً ووَغْراً[3].

(١) تحكم: من أحكم، تتقن من أمرك.

(٢) تساره: من أسَرَّ، تناجيه خفية.

(٣) الحسيكة: من حَسَكَ، العداوة والحقد. والوغر: من وَغِرَ شدة الغيظ، الحقد.

لا تَتَهَاوَنَنَّ بإرسالِ الكَذْبَةِ عندَ الوالي أو غيرِهِ في الهَزْلِ؛ فإنَّها تُسْرِعُ في إبطالِ الحقِّ وردِّ الصِّدقِ، ممَّا تَأْتي بِهِ.

تَنَكَّبْ فيما بينَكَ وبينَ الوالي، وفيما بينَكَ وبينَ الإخوانِ خُلْقاً قد عَرَفْناهُ في بعضِ الوزراءِ والأعوانِ والأَصحابِ، من ادِّعاءِ الرَّجُلِ، عندَما يظهرُ من صاحبِهِ من حُسْنِ أثَرٍ أوْ صوابِ رأيٍ، أَنَّهُ هو عَمِلَ في ذلكَ أوْ أشارَ بهِ، وإقرارِهِ بذلك إذا مَدَحَهُ مادحٌ. بَلْ وإنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَعْرِفَ صاحبُك أَنَّك تَنْحَلُهُ[1] صوابَ رأيكَ، فَضْلاً عنْ أَنْ تَدَّعِيَ صوابَهُ، وتُسْنِدُ ذلك إليه وتُزَيِّنُهُ، فافعَلْ؛ فإنَّ الّذي أَنْتَ آخِذٌ بذلك أكْثَرُ مِمَّا أَنْتَ مُعْطٍ بأضعافٍ.

إذا سأَلَ الوالي غَيْرَكَ فلا تَكُونَنَّ أَنتَ المُجيبَ عنهُ؛ فإنَّ اسْتِلابَكَ الكلامَ خِفَّةٌ بك، واستخفافٌ منكَ بالمسؤولِ وبالسَّائِلِ.

وما أَنتَ قائلٌ إنْ قال لكَ السائِلُ: ما إيَّاكَ سأَلتُ؟ أَوْ قالَ لَكَ الْمَسْؤُولُ عندَ المسألةِ يُعَادُ له بها: دونَكَ فأجِبْ؟

فإنْ لم يَخُصَّ السائِلُ في المسأَلةِ رجلاً واحداً، وعَمَّ بها جَمَاعَةَ مَنْ عندَهُ، فلا تُبَادِرْ بالجوابِ، ولا تُسَابِقِ الجُلَسَاءَ

(١) تنحله: من نَحَلَ، نحلته القول، إذا أضفت إليه قولاً قاله غيره.

تُواثِبُ الكلامَ مُواثَبةً، فإنَّ ذلك، مع شينِ[١] التَّكَلُّفِ والخِفَّةِ، أنَّكَ إذا سَبَقْتَ القَومَ إلى الكلام، صاروا لِكلامِكَ خُصَمَاءَ، فَيَتَعَقَّبُونَهُ بالعَيْبِ والطَّعْنِ، وإذا أنتَ لم تَعْجَلْ بالجوابِ وخَلَّيْتَهُ للقومِ اعترضْتَ أَقاويلَهُمْ على عَيْنِكَ، ثم تَدَبَّرْتَها وفكَّرْتَ فيما عندَك ثم هيَّأْتَ من تفكيرِكَ ومحاسِنِ ما سمعْتَ جَواباً رَضِيّاً، واستدْبَرْتَ به أَقاويلَهُمْ حينَ تُصِيخُ[٢] إليكَ الأسماعُ، ويَهْدَأُ عنكَ الخُصُومُ.

وإنْ لم يَبْلُغْكَ الكلامُ حِينَ يُكْتَفَى بِغَيْرِكَ، أَوِ انْقَطَعَ الحديثُ قبلَ ذلكَ، فلا يَكُونُ من العيبِ عندَك، ولا من الغَبَنِ في نفسِكَ، فَوْتُ ما فاتَك من الجوابِ، فإنَّ صيانةَ القولِ خيْرٌ من سوءِ وَضْعِهِ، وإنَّ كَلِمَةً واحِدةً من الصَّوابِ تُصيبُ مَوْضِعَها خَيْرٌ من مائة كَلِمَةٍ تقولُها في غيرِ فرَصِها ومواضِعِهَا. مَعَ أَنَّ كلامَ العَجَلَةِ والبِدارِ[٣] مُوَكَّل بِهِ الزَّلَلُ وسُوءُ التَّقديرِ، وإنْ ظَنَّ صاحبُهُ أَنْ قد أَتْقَنَ وأَحْكَمَ.

واعلمْ أَنَّ هذه الأُمورَ لا تُنَالُ إلَّا بِرُحْبِ الذَّرْعِ[٤] عندمَا قيلَ وما لم يُقَلْ، وقلةِ الإِعْظَامِ لما ظَهَرَ من المُروءَة أَوْ لم

(١) شين: من شان، العيب.
(٢) أصاخ له يصيخ: استمع. يعدى باللام وإلى.
(٣) البدار: الإسراع. من بَدَرَ.
(٤) رحب الذرع، هنا، سعة الخلق.

يَظْهَرْ، وسَخَاوَةِ النَّفْسِ عَنْ كثيرٍ مِنَ الصَّوابِ مَخَافَةَ الخِلافِ والعَجَلَةِ والحسدِ والمِراء[١].

إذا كلَّمَكَ الوالي فَأَصْغِ إلى كلامِهِ، ولا تَشْغَلْ طَرْفَكَ عنه بنَظَرٍ إلى غيرِهِ، ولا أَطْرَافَكَ بعملٍ، ولا قلبَكَ بحديثِ نفْسِكَ.

واحذرْ هذا من نفسِك وتَعَهَّدْ[٢] ما فيه.

أُرْفُقْ بنُظَرائِكَ من وُزَراءِ السُّلطانِ وَدُخَلائِهِ، واتَّخِذْهُمْ إخْواناً، ولا تَتَّخِذْهُمْ أَعْداءً، ولا تُنَافِسْهُمْ في الكَلِمَةِ يتقرّبونَ بها، والعملِ يُؤْمَرونَ بهِ دونَك.

فإنَّما أنتَ في ذلك أَحَدُ رَجُلَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يكونَ عندَكَ فضلٌ على ما عندَ غيرِكَ فَسَوْفَ يبدو ذلك ويُحتاجُ إليه ويُلْتَمَسُ منك وأنتَ مُجْمِلٌ.

وإِمَّا أَنْ لا يَكُونَ ذلك عِندَكَ، فما أَنتَ مُصِيبٌ من حاجتِك عندَهُم بمُقَارَبَتِكَ ومُلَايَنَتِكَ إِيَّاهُمْ. وما أَنتَ واجدٌ في مُوافَقَتِكَ إياهم ولينِكَ لَهُمْ مِنْ مُوافَقَتِهِمْ إِيَّاكَ ولينِهِمْ لكَ، أَفضلَ مِمَّا أَنتَ مُدْرِكُهُ بالمُنَافَسَةِ والمُنَاظَرَةِ.

---

(١) المراء: الجدال.

(٢) تعهد: من عَهِدَ، أي تفقد.

لا تَجْتَرِئَنَّ على خِلَافِ أَصحابِكَ عندَ الوالي ثقةً باعترافِهِمْ لكَ، ومعرِفَتِهِمْ بفضْلِ رأْيِكَ؛ فإنّا قد رأينا الناسَ يَعْرِفُونَ فَضْلَ الرَّجُلِ ويَنْقَادُونَ له، ويَتَعَلَّمُونَ منهُ وهُمْ أَخْلِيَاءُ[١]، فإذا حضروا ذا السُّلْطانِ لم يرضَ أَحَدٌ منهُمْ أَنْ يُقِرَّ له، وأَنْ يكونَ له عليه في الرأي والعلم فضلٌ، فاجْتَرأُوا عليه بالخِلافِ، والنَّقْضِ. فإنْ نَاقَضَهُمْ كانَ كأَحَدهم، وليس بواجِدٍ في كلِّ حِينٍ سامِعاً فهِماً، أو قاضِياً عدْلاً. وإنْ تَرَكَ مُنَاقضَتَهُمْ صار مغلوبَ الرأيِ مَرْدُودَ القَوْلِ.

إذا عَرَفْتَ نفسَكَ من الوالي بمنزلةِ الثِّقةِ، فاعْزِلْ عنه كلامَ الْمَلَقِ[٢]، ولا تُكْثِرَنَّ مِنَ الدُّعاءِ لهُ في كل كَلِمَةٍ، فإنَّ ذلك شبيهٌ بالوَحْشَةِ والغُرْبةِ، إلَّا أَنْ تُكَلِّمَهُ على رؤوسِ النَّاسِ، فلا تَأْلُ[٣] عمَّا عظَّمَه ووقَّرَهُ.

إذا أَصَبْتَ عندَ الوالي لُطْفَ منزلةٍ لِغَناءٍ[٤] يجدُهُ عندَك، أَوْ هوًى يكون لهُ فيكَ، فلا تَطْمَحَنَّ كُلَّ الطِّماح، ولا تُزَيِّنَنَّ لك نفسُكَ المُزايَلَةَ[٥] له عن أَليفِهِ، وموضِعِ ثقتِهِ وسرِّهِ قبْلَكَ،

(١) أخلياء: من أَخلَّ: قَصّر، أخلياء: مقصّرون.
(٢) الملق: من مَلَقَ، التلطف والتودد واللّين.
(٣) لا تأل: من آل، لا تقصر.
(٤) الغناء: الكفاية.
(٥) المزايلة: من زَيَّلَ، المفارقة.

تُرِيدُ أَنْ تَقْلَعَهُ وتَدخلَ دونهُ؛ فإِنَّ هذهِ خَلَّةٌ مِنْ خِلالِ السَّفَهِ قد يُبْتَلَى بها الحُلَماءُ عندَ الدُّنُوِّ مِنْ ذي السُّلْطانِ حتَّى يُحَدِّثَ الرجلُ منهم نَفسَهُ أَنْ يكونَ دونَ الأهلِ والوَلَدِ، لفضلٍ يَظُنُّهُ في نفسِه، أَو نقصٍ يظُنُّهُ بغيرِهِ.

ولِكُلِّ رجلٍ من الملوك أو ذي هيئةٍ من السُّوقةِ أليفٌ وأَنيسٌ، قد عَرَفَ روحَهُ واطَّلعَ على قلبِهِ، فليسَتْ عليه مَؤُونَةٌ في تَبَذُّلٍ يَتَبَذَّلُهُ عندَهُ، أَوْ رأْيٍ يَسْتَنْزِلُهُ منه، أو سرٍّ يُفْشيهِ إليه، غيرَ أَنَّ تلك الأَنَسَةَ وذلك الإِلفَ، يَسْتَخْرِجُ مِنْ كلِّ واحدٍ منهما ما لم يكنْ لِيَظْهَرَ منهُ عندَ الانْقِباضِ والتَّشَدُّدِ، ولو الْتَمَسَ مُلْتَمِسٌ مِثْلَ ذلك عندَ مَنْ يَسْتَأْنِفُ مُلاطَفَتَهُ وَمُؤَانَسَتَهُ، إِنْ كانَ ذا فضلٍ من الرأيِ والعلم، لم يجدْ عنده مثلَ ما هو مُنْتَفِعٌ به مِمَّنْ هو دونَ ذلك في الرأيِ، مِمَّا قد كُفِيَ مؤانَسَتَهُ ووقَعَ على طِباعِهِ؛ لأَنَّ الأَنَسَةَ رَوْحُ[1] القلبِ، والوَحْشَةَ رَوعٌ[2] عليه ولا يلْتَاطُ[3] بالقلوبِ إلا ما لانَ عليها، ومَنِ استقبلَ تأْسيسَ الوَحْشَةِ استقبلَ أَمْراً ذا مَؤُونَةٍ.

فإِذا كَلَّفَتْكَ نفسُكَ السُّمُوَّ إِلى منزلةِ مَنْ وصفْتُ لك،

(١) الرَّوْح بالفتح: الراحة.
(٢) الروع: الفزع.
(٣) التاط الشيء بقلبه: لصق به من فرط الحب.

فاقْدَعْهَا[1] عن ذلك بمَعْرِفَةِ فضلِ الأَليفِ والأَنيسِ. وإذا حدَّثَتْكَ نَفسُكَ، أَو غيرُكَ مِمَّنْ لعلَّهُ يكونُ له فضلٌ في المُروءَةِ، أَنكَ أَوْلى بالمنزلة عند الكبيرِ منْ بعضِ دُخلائِهِ وثِقَاتِهِ فاذْكُرِ الذي عَلَيْهِ مِنْ حقِّ أَليفِهِ وثِقَتِهِ وأَنيسِهِ في التَّكْرِمَةِ. والَّذي يُعينُهُ على ذلك مِنَ الرأي الَّذي يَجِدُهُ عندَ الأليفِ والأنيسِ، مِمَّا ليس واجداً عِنْدَ غَيْرِهِ.

فَلْيَكُنْ هذا مِمَّا تَتَحَفَّظُ فيه على نفسِكَ، وتَعْرِفُ فيه عُذْرَ السُّلطانِ ورأيَهُ. والرأيُ لك في نفسِك مثْلُ ذلك إِن أَرادَكَ مُريدٌ على الدُّخولِ دونَ أَنيسِكَ، ومَوْضِعِ ثِقَتِكَ وجِدِّكَ وهَزْلِكَ.

اعْلَمْ أَنَّهُ يَكادُ يكونُ لكلِّ رَجُلٍ غالِبَةُ حديثٍ لا يزالُ يُحَدِّثُ بهِ، إِمَّا عن بَلَدٍ مِنَ البُلْدَانِ، أَوْ ضَرْبٍ من ضُروبِ العلمِ، أَوْ صَنْفٍ مِنْ صُنُوفِ النَّاسِ، أو وَجْهٍ من وُجُوهِ الرأيِ. وعندَما يُغْرَمُ به الرَّجلُ مِنْ ذلكَ يبدو منهُ السُّخفُ ويُعْرَفُ منهُ الهوى. فاجْتَنِبْ ذلك في كلِّ موطِنٍ، ثم عند أُولي الأمرِ خاصة.

لا تَشْكُوَنَّ إِلى وُزراءِ السُّلْطانِ ودُخَلائِهِ ما اطَّلَعْتَ عليهِ مِنْ رأيٍ تَكْرَهُهُ لهُ؛ فإِنّك لا تَزِيدُ على أَنْ تُفَطِّنَهُمْ

(١) اقدعها: من قدع، أي كفّها وامنعها.

لِمَيْلِهِ، أَوْ تُغْرِيَهُمْ بِتَزيينِ ذلكَ والميلِ عليكَ مَعَهُ.

اعلَمْ أَنَّ الرجلَ ذا الجاهِ عند الوالي والخاصَّةِ لا مَحالَةَ أَنَّهُ يَرَى مِنَ الوالي ما يُخالِفُهُ من الرأي في الناسِ والأمورِ، فإذا آثرَ أَنْ يَكْرَهَ كلَّ ما يُخالِفُهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَمْتَعِضَ مِن الجَفْوَةِ يَراها في المجلِسِ، أَوِ النَّبوَةِ[١] في الحاجَةِ، أو الرَّدِّ للرأْيِ، أَو الإِدناءِ لِمَنْ لا يَهْوَى إدناءَهُ، أَو الإِقصاءِ لِمَنْ يَكْرَهُ إِقصاءَهُ.

فإِذا وقَعَتْ في قلبِهِ الكَراهِيَةُ تغيَّرَ لذلك وجهُهُ ورأيُهُ وكلامُهُ، حتى يَبْدو ذلك للوالي وغيرِهِ، فيكونَ ذلك لِفَسادِ منزلتِهِ سَبَباً وداعياً.

فَذَلِّلْ نفسَكَ باحتماله ما خالَفَكَ من رأْيِ الوُلاةِ، وقَرِّرْهَا بأَنْهم إنما كانوا أَولياءَكَ لِتَتْبَعَهُمْ في آرائِهِمْ وأَهْوائِهِمْ، ولا تُكَلِّفْهُمْ اتِّباعَكَ وَتَغْضَبْ مِنْ خلافِهِمْ إِيّاك.

إِعلَمْ أَنَّ الملوكَ يَقْبَلُونَ من وزرائهمُ التَّبْخِيلَ[٢] ويَعُدُّونَهُ منهم شَفَقَةً ونَظَراً، ويَحْمَدونَهُمْ عليه، وإن كانوا أَجْواداً.

فإِنْ كنتَ مُبَخِّلاً، غَشَشْتَ صاحبَكَ بِفَسادِ مُروءَتِهِ، وإِنْ

(١) النبوة: من نَبَا، الترفع والتجافي عن قضاء الحاجة.

(٢) التبخيل: من بَخُلَ، الحمل على البخل.

كُنْتَ مُسَخِّياً[1]، لم تأْمَنْ إضرارَ ذلكَ بمنزلتِكَ عندَهُ.

فالرأيُ لَكَ تصحيحُ النَّصيحةِ على وجهِها، والتماسُ الْمَخْرَجِ فيما تترُكُ من تَبْخِيلِ صاحِبكَ، بأَن لا يَعْرِفَ منك فيما تَدْعُوهُ إليه مَيْلاً إلى شيءٍ مِنْ هواكَ، ولا طَلَباً لغيرِ ما ترجُو أَنْ يَزينَهُ ويَنْفَعَهُ.

لا تَكُونَنَّ صُحْبَتُكَ للملوكِ إلّا بَعْدَ رياضةٍ منكَ بنفسِكَ عَلى طاعَتِهِمْ في الْمَكُروهِ عندَكَ، وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، وعلى أَلَّا تَكْتُمَهُمْ سِرَّك، ولا تَسْتَطْلِعَ ما كَتَمُوهُ، وتُخْفي ما أَطْلَعُوكَ عليه عن الناسِ كلِّهم، حتى تحميَ نفسَك الحديثَ به، وعلى الاجتهادِ في رِضاهم، والتَّلَطُّفِ لِحاجتهم، والتَّثْبِيتِ لِحُجَّتِهم، والتصديقِ لِمَقالَتِهِمْ، والتزيينِ لرأيِهِمْ، وعلى قلّةِ الاستقباحِ لِما فَعلوا إذا أَساءوا، وتَرْكِ الانتحالِ لِما فعلوا إذا أَحسنوا، وكَثْرَةِ النَّشْر لمحاسِنهم، وحسنِ السَّتْرِ لمساويهم، والمُقارَبَةِ لمن قاربوا وإنْ كانوا بُعَداءَ، والمباعدةِ لمن باعدوا وإِن كانوا أَقرباءَ، والاهتمامِ بأَمرهم وإن لم يَهْتَمُّوا بهِ، والحفظِ له وإِن ضيَّعوه، والذِّكرِ لَهُ وإِنْ نَسُوهُ، والتَّخفيفِ عَنْهم من مَؤُونتِك، والاحتمالِ لهم كلَّ

(١) مسخّياً: من سخا، أي محباً في الكرم والسخاء.

مَؤُونةٍ، والرِّضى منهم بالعفوِ، وقلّةِ الرِّضى من نفسِك لهم بالمجهود.

فإنْ وجدتَ عنهم وعن صحبتِهم غِنًى، فأَغنِ عن ذلك نفسَكَ، واعتزِلْهُ جهدَك؛ فإنَّ مَنْ يأْخذ عملَهُمْ بحقِّه يُحَلْ بينَه وبينَ لذةِ الدّنيا وعملِ الآخرةِ، ومَنْ لا يأْخُذ بحقِّهِ، يَحْتَمِل الفضيحة في الدنيا والوِزْرَ في الآخِرةِ.

إنْك لا تَأْمَنُ أَنفَهُمْ إنْ أَعْلَمْتَهُمْ، ولا عقُوبَتهم إن كَتَمْتَهُمْ، ولا تأْمَنُ غَضَبهم إنْ صَدَقْتَهُمْ، ولا تأْمَنُ سَلْوَتَهُم[1] إنْ حَدَّثتَهُمْ. إنّكَ إن لزِمْتَهُمْ لم تأْمَنْ تَبَرُّمَهُمْ بكَ، وإن زايَلتَهُم لم تأْمَنْ عِقَابَهُمْ، وإنْ اسْتَأْمَرْتَهُمْ حملْت المؤونَةَ عليهم، وإنْ قَطَعْتَ الأمرَ دونَهُم لم تأْمَنْ فيه مُخالفَتَهُمْ. إنهم إنْ سَخِطُوا عليكَ أَهْلَكُوكَ، وإنْ رَضُوا عنكَ تكلَّفْتَ لِرِضاهُمْ مَا لا تُطيقُ.

فإنْ كُنت حافظاً إنْ بَلَوْكَ، جَلْداً إنْ قَرَّبوكَ، أَميناً إنِ ائْتَمَنوكَ، تُعَلِّمُهُمْ وأَنْت تُريهم أَنّك تَتَعلم منهم، وتُؤَدِّبُهم وكأنهم يؤدِّبونكَ، تَشْكُرُهُمْ ولا تكلِّفُهُمُ الشُّكْرَ، بصيراً بأهوائِهِمْ، مُؤْثِراً لمنافِعِهِمْ، ذليلاً إنْ ظَلَمُوكَ، راضياً إنْ أَسْخَطُوكَ؛ وإلَّا فالبُعْدَ عنهم كلَّ البُعْدِ، والحذَرِ منهمْ كلَّ الحَذَرِ.

(١) السلوة: النسيان، اسم لسلا يسلو.

المقالة الثانية

معاملة الصديق

أُبْذُلْ لصديقك دَمَكَ ومالَكَ، ولمعرِفَتِكَ رِفدَكَ[١] ومَحْضَرِكَ وللعامّةِ بِشْرَكَ وتَحَنُّنَكَ، ولعدوِّكَ عَدْلَكَ وإِنْصافَك. واضْنِنْ بدِينِكَ وعِرْضِكَ عَنْ كلِّ أَحَدٍ.

إِنْ سَمِعْتَ من صاحبِكَ كلاماً أو رأْياً يُعْجِبُكَ فلا تَنْتَحِلْهُ[٢] تزيُّناً به عندَ الناسِ، واكتفِ من التزيُّنِ بأَنْ تَجْتَنِيَ الصَّوابَ إِذا سمعتَهُ، وتنسبَهُ إلى صاحبِهِ.

واعلمْ أَنَّ انتحالَك ذلك مَسْخَطَةٌ لصاحبِك، وأَنَّ فيهِ معَ ذلك عاراً وسُخْفاً.

فإِنْ بلغَ بك ذلك أَنْ تُشِيرَ برأْيِ الرجلِ وتتكلَّمَ بكلامِهِ وهو يسمعُ، جَمَعْتَ معَ الظُّلمِ قلةَ الحياءِ، وهذا من سوءِ الأدبِ الفاشي في النَّاسِ.

(١) الرفد: من رفد، العطاء. والمحضر: من حضر، الحضور. والبشر: من بشر، طلاقة الوجه.

(٢) انتحل الشيء: ادعاه ونسبه لنفسه.

ومِنْ تَمامِ حُسْنِ الخُلُقِ والأَدبِ في هذا البابِ أَنْ تَسْخُوَ نفسُك لأخيكَ بما انتحَلَ من كلامِك ورأيِكَ، وتنسبَ إليه رأْيَهُ وكلامَهُ، وتُزَيِّنَهُ مَعَ ذلكَ ما استطعتَ.

لا يكونَنَّ مِنْ خُلُقِكَ أَنْ تَبْتَدِئَ حديثاً ثم تَقْطَعَهُ وتقولَ: سوفَ، كأَنَّك رَوَّأْتَ[1] فيه بعدَ ابتدائِهِ. وليَكُنْ تروِّيكَ فيه قبلَ التَّفَوُّهِ؛ فإنَّ احْتِجَانَ[2] الحديثِ بعدَ افتِتاحِهِ سُخْفٌ وغَمٌّ.

أُخْزُنْ عقلَك وكلامَك إلّا عندَ إصابةِ الموضِعِ، فإنّه ليس في كلِّ حينٍ يَحْسُنُ كلُّ الصَّوابِ، وإنّما تَمامُ إصابةِ الرأْيِ والقولِ بإصابةِ الموضِعِ فإنَ أخطأَكَ ذلكَ أدخلتَ الْمِحْنَةَ على عِلْمِكَ، حتَّى تأْتيَ بِهِ، إِنْ أتيت في موضِعِهِ، وهو لا بهاءَ لَهُ ولا طَلاوَةَ.

لِيَعْرِفِ العُلَماءُ حينَ تُجالسُهُمْ أَنّكَ على أنْ تَسْمَعَ أَحْرَصُ منكَ على أَنْ تَقُولَ.

إِنْ آثرتَ أنْ تُفاخرَ أحداً مِمَّنْ تَسْتَأْنِسُ إليه في لَهْوِ الحديثِ، فاجعلْ غايةَ ذلكَ الجِدّ، ولا تَعْتَدْ أن تتكلمَ فيه بما كان هَزْلاً، فإذا بَلَغَ الجِدَّ أَوْ قاربَهُ فَدَعْهُ.

(١) روأت في الأمر: إذا نظرت فيه وفكرت.
(٢) الاحتجان: الإمساك. احتجن المال: ضمه إلى نفسه وأمسكه.

ولا تَخْلطَنَّ بالجِدِّ هَزْلاً، ولا بالهَزْلِ جِداً، فإنّك إنْ خَلَطْتَ بالجِدِّ هَزْلاً هجَّنْتَهُ[١]، وإن خلطتَ بالهزلِ جِدّاً كدَّرْتَهُ[٢].

غيرَ أَنّي قد علمتُ موطناً واحداً، إنْ قَدَرْتَ أَنْ تستقبلَ فيهِ الجِدَّ بالهزلِ أصبتَ الرأيَ وظهرتَ على الأقرانِ، وذلك أَنْ يَتَوَرَّدَكَ[٣] مُتَوَرِّدٌ بالسَّفَه والغضبِ وسوءِ اللفظِ، فتُجيبَهُ إجابةَ الهازلِ المُداعبِ، بِرُحْبٍ مِنَ الذَّرْعِ، وطَلاقَة مِنَ الوجهِ، وثَباتٍ مِنَ الْمَنْطِقِ.

إن رأَيْتَ صاحبَكَ مَعَ عدوِّكَ فلا يُغْضِبَنَّكَ ذلكَ، فإنَّما هُو أَحَدُ رَجُلَيْنِ:

إنْ كان رجلاً من إخوانِ الثِّقةِ، فأنْفَعُ مواطنِهِ لك أقربُها من عدوِّكَ، لشرّ يَكفُهُ عنك، أَو لعَوْرَةٍ يَسْتُرُها منكَ، أَو غائِبَةٍ يَطَّلِعُ عليها لكَ. فأَمّا صديقُكَ فما أَغناك أَنْ يَحْضُرَهُ ذو ثِقَتِكَ.

وإِنْ كانَ رَجُلاً مِنْ غيرِ خاصَّةِ إِخوانِكَ، فبأيِّ حقٍّ تقطَعُهُ عنِ النَّاسِ وتُكَلِّفُهُ أَلَّا يُصَاحِبَ ولا يُجالِسَ إلَّا مَنْ تَهوى.

---

(١) هجن الشيء: قبحه.

(٢) كدر الشيء: أزال صفاءه.

(٣) تورده: من ورد، طلب وروده وحضوره.

تَحَفَّظْ في مجلِسِكَ وكلامِكَ من التَّطاوُلِ على الأَصحابِ، وطِبْ نَفساً عن كثيرٍ مِمَّا يَعْرِضُ لك فيه صوابُ القول والرأْيِ مُداراةً، لِئَلَّا يَظُنَّ أصحابُكَ أَنَّ ما بك التطاولُ عليْهِمْ.

إذا أَقبلَ إليكَ مُقْبِلٌ بوُدِّهِ فَسَرَّكَ أَلَّا يُدْبِرَ عَنْكَ، فلا تُنْعِمِ الإقبالَ عليهِ والتَّفَتُّحَ له؛ فإِنَّ الإنسانَ طُبِعَ على ضَرائِبِ لُؤْمٍ، فمِنْ شَأْنِهِ أَن يَرْحَلَ عَمَّنْ لِصَقَ بهِ، ويَلْصَق بمنْ رَحَلَ عنه، إِلَّا مَنْ حَفِظَ بالأَدبِ نفسَهُ، وكابرَ طَبْعَهُ.

فتحفَّظْ مِنْ هذا فيكَ وفي غيرِك.

لا تُكْثِرَنَّ ادِّعاءَ العلمِ في كلِّ ما يَعْرِضُ بينَك وبين أَصحابِك؛ فإنَّك مِنْ ذلكَ بينَ فضيحتَيْن: إِمّا أَنْ يُنَازِعُوكَ فيما ادَّعَيْتَ فيُهْجَمَ منك على الجَالةِ والصَّلَف[1]، وإِمّا أَلَّا يُنازِعُوك ويُخَلُّوا[2] الأمورَ في يَدَيْكَ فَيَنْكَشِفَ منكَ التَّصَنُّعُ والْمَعْجَزَةُ.

إسْتَحْيِ الحياءَ كلَّهُ مِنْ أَنْ تُخْبِرَ صاحبَكَ أَنَّكَ عالِمٌ وأَنَّهُ جاهلٌ، مُصَرِّحاً أَوْ مُعَرِّضاً.

---

(١) الجالة: من جال، العزيمة، الصّلف: من صلف، الإعجاب والتكبّر.

(٢) ويخلّوا: من التخلية أي الترك. خلا يخلو.

وإِنِ اسْتَطَلْتَ[١] على الأَكْفاءِ[٢]. فلا تَثِقَنَّ منهم بالصَّفاءِ.

إِنْ آنَسْتَ مِنْ نفسِكَ فَضْلاً فَتَطَلَّعَ[٣] منك على أنْ تذْكُرَهُ أوْ تُبْدِيَهُ فاعْلَمْ أنَّ ظهورَهُ منكَ بذلكَ الوَجْهِ يُقَرِّرُ لكَ في قلوبِ الناسِ من العَيْبِ أكثرَ مِمَّا يُقرِّرُ لكَ منَ الفَضْلِ.

واعلمْ أَنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ ولم تَعْجَلْ ظَهَرَ ذلكَ منكَ بالوْجهِ الجميلِ الحَسَنِ المعروفِ عندَ النَّاسِ.

ولا يَخْفَيَنَّ عليكَ أَنَّ حِرْصَ الرجلِ على إِظْهارِ ما عندَهُ وقلّةَ وَقارِهِ في ذلكَ بابٌ من أبوابِ البُخْلِ واللُّؤْمِ. وأَنَّ مِنْ خَيْرِ الأَعْوانِ على ذلك السَّخاءَ والتَّكرّمَ.

إِن أَحْبَبْتَ أَنْ تَلْبَسَ ثوبَ الوَقارِ والجمالِ، وَتَتَحَلّى بِحِلْيَةِ الْمَوَدَّةِ عندَ العامّةِ، وتَسْلُكَ الجَدَدَ[٤] الذي لا خَبارَ[٥] فيهِ ولا عِثارَ، فكُنْ عالماً كجاهلٍ، وناطقاً كَعَيّ.

فأَمَّا العلمُ فَيُرْشِدُكَ. وأَمَّا قِلَّةُ ادِّعائِهِ فَيَنْفِي عنكَ الحَسَدَ.

(١) استطلت: ترفعت.
(٢) الأكفاء: جمع كفء، وهو النظير والمثيل. من كفء.
(٣) تطلع الفضل: أي حملك على أن تظهره وتطلعه وتبرزه.
(٤) الجَدَدْ: من أجَدَّ، الأرض الرملية المستوية، وفي المثل: من سلك الجدد أمن العثار.
(٥) الخبَار: جمع خبارة، ما لان من الأرض واسترخى. وفي المثل: من تجنّب الخبار أمن العثار.

وأمَّا الْمَنْطِقُ، إذا احتَجْتَ إليه، فَسَيُبْلِغُ حاجَتَكَ. وأَمَّا الصَّمْتُ فَيُكْسِبُكَ المحَبَّةَ والوقارَ.

إذا رأَيتَ رجلاً يُحَدِّثُ حديثاً قدْ عَلِمْتَهُ أو يُخْبِرُ خَبَراً قدْ سَمِعْتَهُ، فلا تُشَارِكْهُ فيه، ولا تَتَعَقَّبْهُ عليه، حِرْصاً على أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنّكَ قد عَلِمْتَهُ، فإنّ في ذلكَ خِفَّةً وشُحًّا وسوءَ أدبٍ وسُخْفاً.

لِيَعْرِفْ إخوانُك، والعامَّةُ، إنِ استطعتَ، أَنَّك إلى أنْ تفعلَ ما لا تقولُ أَقربُ منك إلى أَن تقولَ ما لا تفعلُ؛ فإنّ فضلَ القولِ على الفعلِ عارٌ وهُجْنَةٌ[1]، وفَضْلَ الفعلِ على القولِ زِينةٌ.

وأَنتَ حقيقٌ فيما وعدتَ من نفسِك، أو أَخبرتَ صاحبَكَ عنه أن تَحْتَجِنَ[2] بعضَ ما في نفسِك، إعداداً لفضلِ الفعلِ على القولِ، وتحرُّزاً بذلك عن تقصيرِ فعلٍ إنْ قَصَّرَ، وقَلَّما يكونُ إلا مُقَصِّراً.

احْفَظَ قولَ الحكيمِ الذي قال: لِتَكُنْ غايتُكَ فيما بينَكَ وبينَ عدوِّكَ العدلَ، وفيما بينَكَ وبينَ صديقِك الرِّضى؛ وذلكَ أنّ العدوَّ خصمٌ تَضْرِبُهُ بالحُجَّةِ، وتَغْلِبُهُ بالحُكَّامِ؛ وأَنّ

(١) الهجنة في الكلام: العيب والقبح من هَجُنَ، وفي العلم: إضاعته.
(٢) تحتجن؛ تضم وتمسك. من احتجن: ضم وأمسك.

الصَّديقَ ليسَ بينَك وبينَهُ قاضٍ فإنَّما حُكْمُهُ رِضاهُ.

اجعلْ غاية نيَّتِكَ في مُؤاخاةِ مَنْ تُؤاخي، ومُوَاصَلَةِ مَن تواصِلُ، توطينَ نفسِكَ على أَنَّهُ لا سبيلَ لكَ إلى قطيعَةِ أَخيكَ، وإن ظَهَرَ لك منهُ ما تَكْرَهُ؛ فإنَّهُ ليس كالْمَمْلوكِ الذي تَعْتِقه إذا شِئْتَ. ولَيسَ كالمرأة التي تُطَلِّقُها إذا شئتَ، ولكنَّهُ عِرْضُكَ ومُروءَتُك، فإنّما مُروءةُ الرجلِ إخوانُهُ وأخدانُهُ[١]. فإنْ عَثَرَ الناسُ على أنكَ قَطَعْتَ رَجُلاً مِنْ إخوانِكَ، وإنْ كنتَ مُعْذِراً[٢]، نَزَلَ ذلك عندَ أكثرِهِم بمنزلةِ الخيانةِ للإخاءِ والْملالِ فيهِ. وإنْ أنتَ صبرت مع ذلك على مُقارَّتِهِ[٣] على غيرِ الرِّضى، دَعا ذلك إلى العيب والنَّقِيصَةِ؛ فالاتّئادَ الاتِّئَادَ، والتثبُّتَ التثبُّتَ.

إذا نظرتَ في حال مَنْ تَرْتَئِيهِ لإخائِكَ، فإنْ كانَ منْ إخوانِ الدينِ فَلْيَكُنْ فَقِيهاً ليس بِمُراءٍ[٤] ولا حريصٍ، وإنْ كان من إخوانِ الدُّنيا فلْيَكُنْ حُرّاً ليس بِجَاهِلٍ ولا كَذَّابٍ ولا شِرِّيرٍ ولا مَشْنُوعٍ.

فإنَّ الجاهلَ أهلٌ لأن يَهْرُبَ منه أبواهُ. وإنَّ الكَذَّابَ لا

(١) الأخدان: جمع خدن، الصديق والصاحب.
(٢) معذراً: مبدياً غاية عذرك.
(٣) المقارة: الاستقرار والسكون على غير رضى.
(٤) مراء: من يظهر العمل للناس ليروه، ويظنوا به خيراً.

يَكونُ أَخاً صادقاً؛ لأَنَّ الكَذِبَ الذي يَجْرِي على لسانِهِ إِنّما هُو مِنْ فُضُولِ كَذِبِ قلبِهِ، وإِنّما سُمِّيَ الصَّديقُ مِنَ الصِّدْقِ، وقد يُتَّهَمُ صِدْقَ القلبِ وإِن صَدَقَ اللّسانُ، فكَيْفَ إذا ظَهَرَ الكَذِبُ على اللّسانِ؟! وإِنَّ الشِّريرَ يكسِبُكَ العدوَّ، ولا حاجَةَ لك في صَدَاقَةٍ تَجْلِبُ العَداوةَ. وإِنَّ المشنوعَ شانِعٌ صاحبَهُ.

تَحَرَّزْ من سُكْرِ السُّلْطةِ وسُكْرِ المالِ، وسُكْرِ العلمِ، وسُكْرِ المنزلةِ، وسكرِ الشبابِ؛ فإِنّهُ ليس مِنْ شيءٍ إِلّا وهو رِيحُ جِنَّةٍ[١] تَسْلِبُ العقلَ، وتُذْهِبُ الوَقارَ، وتَصْرِفُ القلبَ والسَّمْعَ والبصرَ واللّسانَ عن الْمَنافعِ.

اعلمْ أَنَّ انقباضَكَ عنِ النَّاس يُكْسِبُكَ العداوةَ، وأَنَّ تَفَرُّشَكَ[٢] لهم يُكْسِبُكَ صديقَ السوءِ. وفُسُولَةُ[٣] الأَصدقاءِ أَضَرُّ مِنْ بُغْضِ الأعداءِ؛ فإِنّكَ إِن وَاصَلْتَ صديقَ السُّوءِ أَعْيَتْكَ جَرائِرُهُ[٤]، وإِنْ قَطَعْتَهُ شانَكَ اسمُ القطيعةِ وأَلْزَمَكَ ذلك مَنْ يَرْفَعُ عَيْبَكَ[٥] ولا يَنْشُرُ عُذْرَكَ، فإِنّ الْمَعايِبَ تَنْمي، والْمَعَاذِيرَ لا تَنْمِي.

---

(١) الجِنَّة: الجنون. من جُنَّ.
(٢) التفرش: الانبساط. من فرش.
(٣) الفسولة: الرداءة والنذالة. من فَسُلَ.
(٤) أعيتك: أتعبتك. والجرائر: جمع جريرة. وهي الذنب والجناية.
(٥) يرفع عيبك: يذيعه وينسبه إليك.

إلْبَسْ للناسِ لِباسَيْنِ ليسَ للعاقلِ بُدٌّ مِنْهُمَا، ولا عَيْشَ ولا مُروءَةَ إلّا بِهما:

لِباسَ انْقِباضٍ واحْتِجَازٍ، تَلْبَسُهُ للعامَّةِ، فلا تُلْفَيَنَّ إلّا مُتَحَفِّظاً مُتَشَدِّداً مُتَحَرِّزاً مُسْتَعِدّاً.

ولباسَ انبساطٍ واستئناسٍ تَلْبَسُهُ للخاصَّةِ مِن الثِّقاتِ، فَتَتَلقَّاهُمْ ببَناتِ صَدْرِكَ وتُفضِي إليهم بموضوعِ حديثِكَ، وتَضَعُ عنكَ مَؤونةَ الحَذَرِ والتَّحَفُّظِ فيما بَيْنَكَ وبينَهُمْ.

وأَهْلُ هذه الطبقةِ، الّذينَ هُمْ أهْلُها، قليلٌ من قليل حقاً؛ لأَنَّ ذا الرَأْيِ لا يُدْخِلُ أَحَداً مِنْ نفْسِهِ هذا المدخَلَ إلّا بعدَ الاختِبارِ والسَّبْرِ، والثِّقةِ بصدقِ النَّصيحةِ ووفاءِ العَهْد.

اعلمْ أنّ لسانَكَ أَداةٌ مُغَلَّبَةٌ يَتَغالَبُ عليهِ عقلُك وغضبُك وهَواك وجهلُك، فكلُّ غالبٍ عليهِ مُسْتَمْتِعٌ بهِ وصارِفُهُ في محبَّتِهِ. فإذا غَلَبَ عليهِ عقلُكَ فهو لك، وإذا غَلَبَ عليهِ شيءٌ من أشباهِ ما سَمَّيْتُ لكَ فهو لِعَدُوِّكَ.

فإن استطعتَ أَنْ تَحْتَفِظَ بهِ وتَصُونَهُ فلا يَكونَ إلَّا لكَ، لا يَسْتَوْلِي عليهِ أَو يُشارِكَكَ فيه عدوّك، فافعَلْ.

إذا نابَتْ أخاكَ إحدى النَّوائِبِ، من زوال نعمة أو نُزُولِ بَلِيَّةٍ، فاعلمْ أَنَّكَ قدِ ابتُلِيتَ معهُ: إمّا بالمُؤاساةِ فتُشارِكُهُ في

البليَّةِ، وإمّا بالخِذْلانِ فَتَحْتَمِلُ العارَ. فالتمِسِ الْمَخْرَجَ عندَ أَشباهِ ذلك، وآثِرْ مروءتَكَ على ما سِواها.

فإنْ نَزَلَتِ الجائحةُ[1] التي تأْبى نَفْسُكَ مُشارَكةَ أخيك فيها، فأَجْملْ، فلعلَّ الإجمالَ يَسَعُكَ لِقِلَّتِهِ في الناسِ.

إذا أصابَ أخاكَ فضلٌ، فإنّه ليس في دُنُوِّك منه، وابْتِغائِكَ مَوَدَّتَهُ، وتَواضُعِكَ له، مَذَلَّةٌ، فاغتنِمْ ذلك واعْمَلْ فيه.

لا تَعْتَذِرَنَّ إلّا إلى مَنْ يُحِبُّ أَنْ يَجِدَ لكَ عُذْراً. ولا تَسْتَعِينَنَّ إلّا بِمَنْ يُحِبُّ أَنْ يَظْفَرَ لك بحاجتِكَ. ولا تُحَدِّثَنَّ إلّا مَنْ يَرى حديثَكَ مَغْنَماً، ما لم يَغْلِبْكَ الاضطرارُ.

إذا غَرَسْتَ مِنَ الْمَعْروفِ غرْساً وأَنْفَقْتَ عليهِ نَفَقَةً، فلا تَضِنَّنَّ بالنَّفَقَةِ في تربيةِ ما غَرَسْتَ واسْتِنْمائِهِ، فَتَذْهَبَ النَّفَقَةُ الأُولى ضَياعاً.

إذا اعْتَذَرَ إليكَ مُعتَذِرٌ فَتَلَقَّهُ بوجهٍ مُشْرِقٍ، وبِشْرٍ، ولسانٍ طَلْقٍ، إلّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ قَطِيعتُهُ غنيمةٌ.

اعلمْ أنَّ إخوانَ الصدقِ هم خيرُ مكاسبِ الدنيا: هم زِينةٌ في الرَّخاءِ، وعُدَّةٌ في الشّدةِ، ومَعونَةٌ في الْمَعاشِ والْمَعادِ، فلا تُفَرِّطَنَّ في اكتسابِهِمْ وابتغاءِ الوُصَلاتِ والأسبابِ إليهم.

---

(١) الجائحة: الشدة التي تجتاح المال، أي تهلكه.

واعلمْ أنك واجدٌ رغبتَكَ من الإخاءِ عندَ أقوامٍ قد حالَتْ بينَكَ وبينَهم بعضُ الأُبَّهةِ التي قد تعتري أهلَ المُروءَاتِ فَتَحْجُزُ مِنْهُمْ كثيراً ممن يُرْغَبُ في أمثالِهِمْ، فإذا رأَيتَ أَحداً من أولئك قد عَثرَ به الزّمانُ فأَقِلْهُ.

إذا كانَتْ لكَ عندَ أحدٍ صنيعةٌ، أو كان لك عليه طَوْلٌ[١]، فالتمِسْ إحياءَ ذلك بإماتَتِهِ، وتعظيمَهُ بالتَّصغيرِ له. ولا تَقْتَصِرَنَّ في قِلّةِ الْمَنِّ بِهِ على أنْ تَقُولَ: لا أذْكُرُهُ، ولا أُصْغي بِسَمْعي إلى مَنْ يَذْكُرُهُ، فإنَّ هذا قدْ يَستحيي منه بعضُ مَنْ لا يُوصَفُ بعقلٍ ولا كَرَمٍ. ولكنِ احْذَرْ أنْ يكونَ في مُجَالَسَتِكَ إياه وما تكلِّمُهُ بهِ أو تَسْتَعينُهُ عليه أو تجاريهِ فيهِ، شيءٌ من الاستِطالةِ، فإنَّ الاستطالةَ تهدِمُ الصَّنيعةَ وتُكَدِّرُ المعروفَ.

احْتَرِسْ مِنْ سَوْرَةِ الغَضَبِ[٢]، وسَوْرَةِ الحميَّةِ، وسَوْرَةِ الحِقْدِ، وسَوْرَةِ الجَهْلِ. وأَعْدِدْ لكلِّ شيءٍ من ذلكَ عُدَّةً تجاهِدُهُ بها، مِنَ الحلمِ والتكفُّرِ والرَّوِيَّةِ، وذِكْرِ العاقبةِ وطَلَبِ الفَضيلةِ.

واعلمْ أَنَّكَ لا تُصِيبُ الغَلَبَةَ إلّا بالجِهادِ، وأَنَّ قِلَّةَ الإِعْدَادِ لِمُدافَعَةِ الطَّبائعِ المتَطَلِّعَةِ هُو الاستسلامُ لها، وأَنَّهُ ليسَ أَحَدٌ

(١) الطول: المنّ والفضل.
(٢) السورة «بفتح السين» هي الشدة والحدة.

من الناسِ إلّا وفيهِ من كلِّ طبيعةِ سُوءٍ غريزةٌ. وإنما التفاضُلُ بينَ الناسِ في مُغالَبَةِ طَبائِعِ السُّوءِ.

فأَمَّا أَنْ يَسْلَمَ أَحَدٌ من أَنْ يكونَ فيهِ مِنْ تلك الغرائزِ شيءٌ فليسَ في ذلك مَطْمَعٌ. إلّا أَنَّ الرَّجُلَ القويَّ إذا كابَرَها بالقمعِ[١] لها كلَّما تَطَلَّعَتْ، لم يلبَثْ أَنْ يُميتَها حتى كأَنَّها ليست فيهِ، وهي في ذلك كامنةٌ كُمونَ النارِ في العودِ والحجَر. فإذا وَجَدَتْ قادحاً من علّةٍ أَو غفلَةٍ، اسْتَوْرَتْ[٢] كما تَسْتَوْري النَّارُ عند القَدحِ في الحطبِ، ثم لا يَبْدَأُ ضَرُّها إلا بصاحِبها، كما لا تَبْدَأُ النَّارُ إِلَّا بِعُودِها الذي كانتْ فيهِ.

ذَلِّلْ نَفْسَكَ بالصَّبْرِ على جارِ السُّوءِ، وعشِيرِ السوءِ، وجليسِ السوءِ؛ فإنَّ ذلك ما لا يَكادُ يُخْطِئُكَ.

واعلمْ أنَّ الصبرَ صبرانِ: صبرُ المرءِ على ما يَكْرَهُ، وصبرُهُ عمَّا يُحِبُّ. فالصَّبْرُ على المكروهِ أَكْبَرُهما وأَشْبَهُهُما بأَنْ يكون صاحبُهُ مُضْطَرّاً.

واعلمْ أَنَّ اللِّئامَ أَصبرُ أجساداً والكرامَ أصبرُ نُفوساً. وليس الصبر الممدوح بأنْ يكونَ جِلْدُ الرجلِ وَقَاحاً[٣] على

(١) كابرها: من كابر، غالبها بالقهر والإذلال.
(٢) أي استعرت واتقدت والتهبت.
(٣) وقاحاً: من وَقَحَ، أي فيه صلابة وكثرة احتمال.

الضرب، أو رِجْلُهُ قويَّةً على المشيِ، أو يَدُهُ قويَّةً على العمل، فإنما هذا من صفات الحميرِ. ولكنَّ الصّبرَ المحمودَ الممدوح لنْ يكون للنفس غلوباً، وللأُمورِ مُحْتَمِلاً، وفي الضَّر متحملاً، ولنفسهِ عند الرأيِ والحِفاظِ[١] مُرْتَبِطاً، وللحَزْم مُؤْثِراً وللهَوى تارِكاً، وللمَشَقَّةِ التي يرجو عاقبتَها مُسْتَخفًّا، ولنفسِهِ على مُجَاهَدَة الأَهْواءِ والشَّهَواتِ مُواظِباً، ولبصرِهِ بعزمِهِ مُنْفِذاً.

حَبِّبْ إلى نفسِكَ العلمَ حتى تَلْزَمَهُ وتَأْلَفَهُ، ويكونَ هُوَ لَهْوَكَ وَلَذَّتَكَ وسَلْوَتَكَ وبُلغَتَكَ[٢].

واعلمْ أنَّ العلمَ عِلْمانِ: علمٌ للمنافع، وعلمٌ لتَذْكيَةِ[٣] العَقْلِ.

وأفْشَى العلْمَيْنِ وأَجْدَاهُما أَنْ يَنْشَطَ له صاحبُهُ من غيرِ أَنْ يُحَرَّضَ عليه عِلْمُ المنافعِ. ولِلْعِلْمِ الذي هُوَ ذَكاءُ العُقولِ وصقالُها وجِلاؤُها فضيلةُ منزلةٍ عند أهلِ الفضلِ في الأَلبابِ.

عَوِّدْ نفسَكَ السَّخاءَ[٤] واعلمْ أَنَّهُ سخاءَانِ: سَخاوةُ نفسِ

(١) الحفاظ: من حافظ، الذبّ عن المحارم.
(٢) البلغة: ما يكتفى به من العيش.
(٣) تذكية العقل: إنماؤه. من ذكى، الذكاء: سريع الفطنة.
(٤) السخاء: من سخا، العطاء والكرم.

الرجلِ بما في يَدَيْهِ، وسَخاوَتُهُ عمَّا في أَيدي النَّاس.

وسخاوةُ نَفْسِ الرجلِ بما في يديهِ أَكْثَرُهُما وأَقربُهُما مِن أَنْ تَدْخُلَ فيه المفاخَرَةَ، وتَركُهُ ما في أيدي الناسِ أَمْحَضُ في التَّكَرُّمِ، وأَنْزَهُ من الدنس.

فإنْ هُوَ جَمَعَهُما، فَبَذَلَ وعَفَّ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الجُودَ والكَرَمَ.

لِيَكُنْ مما تَصْرِفُ به الأَذَى والعذابَ عن نفسِكَ ألَّا تكونَ حَسوداً؛ فإنّ الحَسَدَ خُلُقٌ لئيمٌ، ومِنْ لؤمِهِ أَنَّهُ يُوَكَّلُ بالأدنى فالأدنى من الأقاربِ والأكفاءِ والمعارف والخُلَطاءِ والإخوانِ. فَلْيَكُنْ ما تُقَابِلُ بهِ الحسَدَ أَنْ تعلمَ أَنَّ خيرَ ما تكونُ حينَ تكونُ مَعَ مَنْ هُو خَير منك، وأنَّ غنماً حَسَناً لك أَنْ يكونَ عَشيرُكَ وخليطُكَ أَفضلَ منكَ في العلمِ فتقتبِسَ مِنْ علمِهِ، وأَفضلَ منكَ في القوةِ فيدفعَ عنك بقوتهِ، وأَفضلَ منك في المالِ فتُفيدَ من مالهِ، وأفضل منك في الجاهِ فتُصيبَ حاجتَكَ بجاهِهِ، وأفضلَ منك في الدينِ، فَتَزْدادَ صلاحاً بصلاحِهِ.

ليكن مما تنظُر فيهِ من أَمرِ عدوِّكَ وحاسِدِكَ أنْ تعلمَ أنَّه لا ينفعُكَ أَنْ تُخْبِرَ عدوَّك أو حاسدَك أنَّك له عدوٌّ فَتُنْذِرَهُ نَفْسَكَ، وتؤاذِنَهُ بحربِكَ قبل الإعدادِ والفُرصةِ، فتحمِلَهُ على التسلُّحِ لكَ، وتُوقِدَ نارَهُ عليكَ.

واعلمْ أنه أعظمُ لخطرِك[١] أنْ تُرِيَهُ أنَّكَ لا تَتَّخِذُه عَدواً؛ فإنَّ ذلك غِرَّةٌ له، وسبيلٌ لك إلى القُدرةِ عليه. فإنْ أنتَ قَدَرْتَ فاستطعتَ اغتفاراً لِعَداوَتِهِ عن أن تكافئَ بها، فهنالك استكمَلت عظيمَ الخَطَرِ.

وإنْ كنتَ مكافِئاً بالعَداوةِ والصَّررِ، فإيَّاكَ أن تُكافئَ عداوةَ السِّرِّ بعداوةِ العَلانيَةِ، وعداوةَ الخاصَّةِ بعداوةِ العامَّةِ؛ فإنَّ ذلك هُو الظُلمُ والعارُ.

واعلمْ مَعَ ذلك أنّه ليس كلُّ العداوةِ والضررِ يُكافَأُ بمثلِهِ، كالخيانةِ لا تُكافَأُ بالخيانةِ، والسَّرِقَةِ لا تُكافَأُ بالسَّرِقَةِ.

ومِنَ الحيلة في أمرِكَ مَعَ عدوِّك أن تصادقَ أصدقاءَهُ، وتُؤَاخِيَ إخوانَهُ، فتدخلَ بينَهُ وبينَهُمْ في سبيلِ الشِّقاقِ والتَّجافي؛ فإنَّهُ ليس رجلٌ ذو طَرْق[٢] يمتنعُ من مُؤَاخاتِكَ إذا التمستَ ذلكَ منه. وإن كان إخوانُ عدوِّك غيرَ ذَوي طَرْقٍ فلا عَدُوَّ لك.

لا تَدَعْ معَ السكوتِ عن شتمِ عدوِّك ـ إحصاءَ مثالبه ومعايبِه ومعايرِه واتباعَ عَوْراتِهِ، حتَّى لا يَشِذَّ عنك من ذلكَ صغيرٌ ولا كبيرٌ، من غيرِ أنْ تَشيعَ ذلك عليه، فَيَتَّقِيَكَ بهِ

(١) لخطرك: لقدرك ولمنزلتك.
(٢) الطَرْق: جمع أطراق، من أطرق، نصب له فخاً.

ويستعدَّ له. ولا تَذْكُرْهُ في غيرِ موضِعِهِ، فتكونَ كمستعرضِ الهواءِ بنَبْلِهِ[١] قبلَ إمكانِ الرَّمْيِ.

ولا تَتَّخِذِ اللعنَ والشتمَ على عدوِّكَ سلاحاً، فإنَّه لا يجرح في نفسٍ ولا في منزلةٍ ولا مالٍ ولا دينٍ.

إنْ أَردتَ أَن تكونَ داهياً فلا تُحِبَّنَّ أَنْ تُسمَّى داهياً، فإنَّهُ مَنْ عُرِفَ بالدَّهاءِ خاتلَ علانيَّةً وحَذِرَهُ الناس حتى يَمْتَنِعَ منهُ الضعيف.

وَإِنَّ من إرْب[٢] الأريبِ دَفْنَ[٣] إِرْبِهِ ما استطاعَ؛ حتى يُعْرَفَ بالمسامَحَةِ في الخليقة والاستقامةِ في الطريقةِ. ومِنْ إِرْبِهِ أَلّا يؤَارِبَ العاقلَ المستقيمَ لَهُ الَّذي يَطَّلِعُ على غامضِ إِرَبِهِ، فَيَمْقُتَهُ عليه.

وإن أردتَ السلامةَ فأَشْعِرْ قلبَكَ الهيبةَ للأُمورِ، مِنْ غيرِ أنْ تَظْهَرَ للنَّاسِ منك الهيبةُ، فتُفْطِنَهُمْ بنفسكَ، وتُجَرِّئَهُمْ عليك، ويدْعُو ذلك منهم كلَّ ما تهابُ، فاشعَبْ لمداراةِ ذلك مِنْ كتمانِ المهابةِ وإظهارِ الجراءةِ والتهاوُنِ، طائفةً من رأيِكَ.

---

(١) النبل هي السهام مثل النبال، من نبل.

(٢) الإِرْب: «بكسر الهمزة» من أَرِبَ، الدهاء والحيلة، والأرب: الحاجة والغاية.

(٣) أي ستره.

وإنْ ابْتُلِيتَ بمجازاةِ عدوٍّ فخالفْ هذهِ الطريقةَ التي وصَفْتُ لك من استِشعارِ الهيبةِ، وإظهارِ الجراءةِ، والتهاونِ. وعليكَ بالحَذَرِ في أمْرِكَ، والجراءَةِ في قلبِك، حتى تَمْلأ قلبَكَ جراءةً، ويَسْتَفْرِغَ عملُكَ الحَذَرَ.

اعلمْ أنّ من عدوِّك مَنْ تَعملُ في هلاكه، ومنهم من تَعملُ في مصالحته، ومنهم من تعملُ في البعدِ عنهُ، فاعرِفْهُمْ على منازِلِهِمْ.

ومِنْ أقوى القوةِ لكَ على عدوِّك، وأعزِّ أنصارِك في الغَلَبَةِ له، أَنْ تُحْصِيَ على نفسِكَ العيوبَ والعورات كما تُحْصِيها على عدوِّك، وتَنْظُرَ عندَ كلِّ عيبٍ تراهُ أو تسمَعُهُ لأحدٍ من النَّاسِ: هل قارفْتَ مِثْلَهُ، أو مُشاكِلَهُ. فَإن كنتَ قارَفْتَ شيئاً منهُ فَأحصِهِ فيما تحصي على نفسِكَ، حتَّى إذا أحصيتَ ذلك كلَّهُ، فكابِرْ عدوَّكَ بإصلاحِ عُيوبِكَ، وتَحْصينِ عوراتِك، وإحرازِ مَقاتِلِك[1].

وخُذْ نفسَكَ بذلكَ مُمْسِياً مُصْبِحاً.

فإذا آنستَ منها دفعاً لذلكَ أو تَهاوُناً به فاعْدُدْ نفسَكَ عاجِزاً ضائعاً خائباً، مُعوِراً[2] لعدوّك، مُمْكِناً له من رَمْيِكَ.

(١) المقاتل: من قَتَلَ، المواضع التي إذا أصيبت هلك صاحبها.
(٢) المُعْوِر: من عَوِرَ، قبيح الصورة.

وإِنْ حَصَلَ من عيوبِك وعَوْراتِك بعضُ ما لا تقدِرُ على إصلاحِه من أَمْرٍ لك قد مضى، يُعيبُكَ عندَ النَّاسِ ولا تراهُ أَنْتَ عَيْباً، فاحفَظْ ذلك، وما عسى أنْ يقولَ فيه قائلٌ، مِن حَسَبِكَ أَوْ مَثالِبِ آبائِكَ أو عَيْبِ إِخوانِكَ، ثم اجعلْ ذلكَ كلَّه نُصْبَ عينيكَ[1]، واعلمْ أنَّ عدوَّكَ مريدُكَ بذلكَ، فلا تغفلْ عن التَّهَيُّوءِ له والإعدادِ لقوَّتِكَ وحُجَّتِكَ فيه سِرّاً وعلانِيَةً.

فأَمَّا الباطلُ فلا تُرَوِّعَنَّ بهِ قلبَكَ، ولا تَشْتَغِلَنَّ بِهِ، فإِنَّهُ لا يَهُولُكَ ما لم يقَعْ، وإذا وَقَعَ اضْمَحَلَّ.

واعلمْ أَنَّهُ قلّما بُدِهَ أَحَدٌ بشيءٍ يعرِفُهُ من نفسِهِ ـ وقد كان يطمَعُ في إخفائِهِ عن الناسِ ـ فيُعَيِّرُهُ به مُعَيِّرٌ عندَ السلطانِ أو غيرِهِ، إِلّا كاد يَشْهَدُ عليهِ وجهُهُ وعيناهُ ولسانُه، للذي يبدُو منه عند ذلك، والذي يكونُ من انكسارِهِ وفُتُورِهِ عندَ تلكَ البداهَةِ.

فاحذَرْ هذه وتصنَّعْ لها، وخُذْ أُهْبَتَكَ لِبَغْتاتِها وتَقَدَّمْ في أَخْذِ العتادِ لنفيها.

إِعلَمْ أَنَّ من أوقعِ الأمورِ في الدينِ، وأَنْهكها للجسَدِ، وأتْلَفِها للمالِ، وأَضَرِّها بالعقلِ، وأَزراها للمُروءَةِ، وأسرعِها

(١) نُصْبَ: من نصب، أي الغاية التي يتجه إليها نظرك.

في ذهابِ الجَلالةِ والوَقارِ، الغرامَ بالنِّساء. ومن البلاءِ على المُغْرَم بِهنَّ إِنَّهُ لا ينفكُّ يَأْجِمُ[١] ما عندَهُ، تطمَحُ عيناهُ إِلى ما ليس عندَهُ منهُنَّ.

وإِنّما النِّساءُ أَشْباهٌ. وما يُرى في العيونِ والقلوبِ مِنْ فضلِ مجهولاتِهِنَّ على معروفاتِهِنَّ باطلٌ وخُدْعةٌ. بل كثيرٌ مِمَّا يَرْغَبُ عَنْهُ الرَّاغِبُ مِمَّا عندَهُ أَفضلُ مما تتوقُ إليه نفسُهُ منهنّ.

وإِنمَا المُتَرَغِّبُ عمّا في رَحْلِهِ[٢] منهنَّ إلى ما في رِحالِ الناسِ المترغّب عن طعامِ بيتِهِ إلى ما في بيوتِ الناسِ، بلِ النِّساءُ أَشبهُ بالنِّساءِ مِنَ الطعامِ بالطعامِ، وما في رحالِ الناسِ من الأطعمةِ أشدُّ تفاضُلاً وتفاوتاً مِمّا في رِحالِهِمْ مِنَ النِساءِ.

ومِنَ العَجَبِ أَنَّ الرجُلَ الذي لا بأْسَ في لُبِّهِ ورأْيِهِ يَرى المرأْةَ مِنْ بعيدٍ مُتَلَفِّفَةً في ثيابِها، فيُصوِّرُ لها في قلبِهِ الحُسْنَ والجمالَ حتى تعلَقَ بها نَفْسُهُ، من غيرِ رؤيةٍ ولا خَبَرِ مُخبِرٍ، ثم لعلَّه يَهْجُمُ منها على أَقْبَحِ القُبْحِ وأَدَمِّ الدَّمامةِ. فلا يعظهُ ذلك ولا يَقْطعهُ عن أمثالها، ولا يزالُ مَشْغُوفاً بما لم يَذُقْ، حتَّى لو لم يبقَ في الأَرضِ غيرُ امرأَةٍ واحدةٍ لظَنّ أَنّ لها شأْناً

(١) يأجم: يكره، وأجم الطعام: كرهه وملّه.

(٢) الرَّحْل: من رَحَلَ، مسكن الرجل في الحضر. ويطلق على أمتعة المسافر وما فيها من خيمة وعصي وأوتاد...

غيرَ شأْنِ ما ذاقَ. وهذا هو الحُمْقُ والشَّقاءُ والسَّفَهُ.

ومَنْ لم يَحْمِ نفسَهُ ويَظْلِفْها ويَجْلُها[1] عن الطَّعام والشرابِ والنِّساءِ في بَعْضِ ساعاتِ شَهْوَتِهِ وقُدْرَتِهِ، كانَ أَيْسَرَ ما يُصيبُهُ من وَبال أَمْرِهِ، انْقطاعُ تِلْكَ اللَّذَّات عنه، بخُمودِ نارِ شَهْوَتِهِ، وضَعْفِ عَوامِلِ جَسَدِهِ. وَقَلَّ من تجد إلّا مخادعاً لنفسه في أمر جَسَدِهِ، عن الطَّعام والشَّرابِ والحِمْيَةِ والدواءِ، وفي أمرِ مُروءَتِهِ، عندَ الأهواءِ والشَّهَواتِ، وفي أَمر دينِهِ، عندَ الريبةِ والشُّبْهَةِ والطَّمَعِ.

إنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُنْزِلُ نفسَكَ دُونَ غايَتِكَ في كلِّ مَجْلِسٍ ومَقامٍ ومَقالٍ ورأيٍ وفِعْلٍ فافْعَلْ؛ فإنَّ رَفْعَ النَّاسِ إياكَ فوقَ المنزلَةِ التي تَحُط إليها نفسَكَ، وتقريبَهُمْ إياك في المجلِسِ الذي تَباعَدْتَ عنه، وتعظيمَهُمْ مِنْ أمرِكَ ما لَمْ تعظِّمْ، وتزيينَهُمْ مِنْ كلامِكَ ورأيِكَ ما لَمْ تُزَيِّنْ، هُوَ الجمالُ.

لا يُعْجِبَنَّكَ العالِمُ ما لم يَكنْ عالماً بمواضعِ ما يَعْلَمُ، ولا العاملُ إذا جَهِلَ موضعَ ما يَعْمَلُ.

إنْ غُلِبْتَ على الكلامِ وقتاً فلا تُغْلَبَنَّ على السُّكوتِ؛ فإنّه لعلَّهُ يكونُ أشدَّهما لك زَينةً، وأجلبَهما إليكَ مَوَدَّةً، وأبقاهُما للمهابةِ، وأَنفاهُما للحَسَدِ.

(١) يظلف نفسه عن الشيء: من ظلف ، يكفها من كَفَّ ويمنعها من مَنَعَ. ويجلو نفسه من جلا: أي يبعدها من بَعُدَ ويطردها من طرد.

احْذَرِ المِراءَ واعْرِفْهُ، ولا يَمْنَعَنَّكَ حَذَرُ المراءِ[١] مَنْ حُسْنِ المُنَاظَرَةِ والمجادلةِ.

واعلَمْ أَنَّ المُماريَ هو الذي لا يُحِبُّ أنْ يتعلَّمَ ولا يُتَعَلَّمَ مِنْهُ.

فإِنْ زَعَمَ زاعمٌ أَنه إنّما يُجادِلُ في الباطلِ عن الحقِّ؛ فإنَّ المُجادِلَ ـ وإنْ كان ثابتَ الحُجَّةِ ظاهرَ البيِّنةِ حاضرَ الذّهنِ ـ فإنّه يُخاصِمُ إلى غيرِ قاضٍ، وإنَّما قاضيهِ الَّذي لا يَعْدُو بالخصومةِ إلّا إليه، عَدْلُ صاحبِهِ وعقلُهُ، فإِنْ آنَسَ أو رَجا مِن صاحبِهِ عدلاً يَقضي بهِ على نفسِهِ، فقدْ أصابَ وجهَ أمرِهِ، وإِنْ تَكَلَّمَ على غيرِ ذلك، كان مُمارِياً.

إِنِ استطعتَ أَلَّا تُخْبِرَ أَخاكَ عن ذاتِ نفسِك بشيءٍ إلّا وأَنْتَ مُحْتَجِنٌ عنه بعضَ ذلك، التماساً لفضلِ الفعلِ على القولِ واستعداداً لتقصيرِ فعلٍ ـ إِنْ قَصَّرَ ـ فافْعَلْ.

واعلمْ أَنَّ فضلَ الفعلِ على القولِ زينةٌ، وفضلَ القولِ على الفعلِ هُجْنَةٌ[٢]، وأَنَّ إِحكامَ هذهِ الخَلَّةِ[٣] من غرائبِ الخِلالِ.

---

(١) المراء: من مارى بمعنى جادل ونازع ولاجّ.

(٢) الهجنة: من هَجُن، القبح والعيب.

(٣) الخلة: الخصلة. والجمع: خلال. الوهن والفساد.

إذا تراكمتْ عليكَ الأعمالُ فلا تلتمسِ الرَّوْحَ[١] في مُدافَعتِها بالرَّوغانِ[٢] منها؛ فإنه لا راحةَ لك إلا في إصدارِها، وإنّ الصَّبرَ عليها هو الذي يُخفِّفُها عنك، وإنَّ الضَّجَرَ منها هو يُراكِمُها عليكَ.

فتعهَّدْ من ذلك في نفسِكَ خَصْلَةً قد رأيتُها تعتري بعضَ أصحابِ الأعمالِ؛ وذلك أَنَّ الرجلَ يكونُ في أمرٍ من أمرِهِ فَيرِدُ عليه شُغْلٌ آخَرُ، ويأْتيهِ شاغلٌ من الناسِ يَكْرَهُ تأْخيرَهُ فيكدِّرُ ذلك بنفسِهِ تكديراً يُفْسِدُ ما كان فيهِ، وما وَرَدَ عليهِ، حتَّى لا يُحْكِمَ واحداً منهما. فإنْ وَرَدَ عليك مثلُ ذلك فليكنْ معك رأْيُك وعقلُك اللّذانِ بهما تختارُ الأمورَ ثم اختَرْ أَوْلَى الأمرينِ بِشُغْلِكَ فاشتَغِلْ به حتى تَفْرُغَ منهُ، ولا يَعْظُمَنَّ عليك فَوْتُ ما فات وتأْخيرُ ما تأَخَّرَ، إذا أَعْمَلْتَ الرأْيَ مَعْمَلَهُ، وجعلْتَ شُغْلَكَ في حقِّه.

اجعلْ لنفسِكَ في كلِّ شيءٍ غايةً ترجُو القُوَّةَ والتَّمامَ عليها. واعلمْ أَنّك إنْ جاوزتَ الغايةَ في العبادةِ صرتَ إلى التَّقصيرِ، وإنْ جاوزْتَها في حملِ العلمِ صِرْتَ من الجهَّالِ، وإنْ جاوزْتَها في تكلُّفِ رِضا الناسِ والخِفَّة مَعَهُمْ في حاجاتِهِمْ كنتَ الْمَخْسُورَ المُضَيِّعَ.

(١) الرَّوح: من راح، أي الراحة.
(٢) الروغان: من راغ، الحيدان والمداورة.

اعلَمْ أَنَّ بعضَ العطيةِ لُؤْمٌ، وبعضَ البيانِ عِيٌّ، وبعضَ العلم جَهْلٌ، فإنِ استطعتَ ألا يكونَ عطاؤُكَ خَوَراً، ولا بيانُكَ هَذَراً[1]، ولا عِلْمُكَ جَهْلاً، فافعلْ.

اعلَمْ أَنهُ سَتَمُرُّ عليك أحاديثُ تُعْجِبُكَ، إمّا مَلِيحَةٌ، وإمّا رائِعَةٌ.

فإذا أَعْجَبَتْكَ كنتَ خليقاً أن تَحْفَظَها؛ فإنَّ الحفظَ مُوَكّلُ بما مَلُحَ وراعَ. وسَتَحْرِصُ على أنْ يَتَعَجَّبَ منها الأقوامُ؛ فإنَّ الحِرْصَ على التَّعَجُّبِ من شأْنِ الناسِ، وليس كلُّ مُعْجِبٍ لك مُعْجِباً لغيرِكَ.

وإذا نشرتَ ذلك مرّةً أو مَرَّتينِ فلم تَرَهُ وَقَعَ من السَّامعينَ موقعَهُ منك، فازْدَجِرْ عنِ العودِ لَهُ، فإنّ العَجَبَ مِنْ غيرِ عجيبٍ سُخْفٌ شديدٌ. وقد رأينا من الناسِ مَن يعلَقُ الشيءَ ولا يُقْلِعُ عنه وعَنِ الحديثِ بهِ، ولا يمنَعُهُ قِلَّةُ قَبُول أصحابِهِ له مِنْ أَنْ يعودَ ثُمَّ يَعُود.

ثم انظر الأخبارَ الرائعةَ وتَحَفَّظْ منها؛ فإنَ الإنسانَ من شأْنِهِ الحِرْصُ على الأخبارِ لا سِيّما ما راعَ منها. فأكثرُ الناسِ مَنْ يحدِّثُ بما سَمِعَ ولا يبالي مِمَّنْ سَمِعَ، وذلك مَفْسَدَةٌ للصِّدْقِ، ومِزْراةٌ بالرَّأْيِ.

(١) الهذر: من هَذِرَ، سقط الكلام، أو الكثير الرديء.

فإنِ استطَعتَ أَلّا تخبرَ بشيءٍ إلّا وأَنتَ به مُصَدِّقٌ والّا يكونَ تصديقُكَ إلّا ببُرْهانٍ فافعلْ. ولا تَقُلْ كما يقولُ السُّفهاءُ: أُخْبِرُ بما سمعتُ. فإنَّ الكَذِبَ أكثرُ ما أنتَ سامعٌ، وإنَّ السُّفهاءَ مَنْ هُوَ قائلٌ، وإنَّك إن صِرْتَ للأَحاديثِ واعياً وحاملاً، كان ما تَعي وتَحْمِلُ عَنِ العامّةِ أكثرَ مما يخترعُ المخترِعُ بأَضعافٍ.

انظُرْ مَنْ صاحبْتَ من الناسِ من ذي فضلٍ عليك بِسُلطانٍ أَو منزلةٍ، أَو مَنْ دونَ ذلك من الأكفاءِ والخُلَصاءِ والإخوانِ، فَوطِّنْ نفسَكَ في صُحْبَتِهِ على أنْ تقبلَ منه العفوَ، وتَسْخُوَ نفسُك عمَّا اعتاضَ عليكَ مما قِبَلَهُ، غيرَ مُعَاتِبٍ ولا مُسْتَبْطِئٍ ولا مُسْتَزِيدٍ؛ فإنَّ المعاتبَة مَقطَعَةٌ للوُدِّ، وإنَّ الاستزادة من الجَشعِ، وإنَّ الرِّضا بالعفوِ والمُسَامَحَةَ في الخُلُقِ مُقَرِّبٌ لك كلَّ ما تتوقُ إليه نفسُك، مَعَ بقاءِ العِرضِ والمودَّةِ والمُرُوءَةِ.

اعلَمْ أَنَّكَ سَتُبْتَلَى مِنْ أقوام بسَفَهٍ، وأَنَّ سفهَ السَّفِيهِ سَيُطْلِعُ لَكَ منه حِقْداً. فإنْ عارضتَهُ أو كافأْتَهُ بالسَّفَهِ فكأنك قد رَضِيتَ ما أَتى بهِ. فاجْتَنِبْ أَنْ تَحْتَذِيَ مثالَهُ؛ فإنْ كانَ ذلك عندَكَ مَذمُوماً فَحَقِّقْ ذَمَّكَ إياهُ بِتَرْكِ مُعارَضَتِهِ، فأَمَّا أنْ تَذُمَّهُ وتَمْتَثِلَهُ فليسَ ذلك لكَ سَداداً.

لا تُصاحِبنَّ أَحداً وإنِ استأْنستَ به، أَخا قَرابةٍ أو أَخا مودَّةٍ

ولا والداً ولا ولداً، إلّا بِمروءةٍ؛ فإنَّ كثيراً من أهلِ المروءةِ قد يَحْمِلُهُم الاسترسالُ والتبذُّلُ على أن يَصْحَبُوا كثيراً من الخُلَصاءِ بالإدلالِ والتَّهاوُنِ.

ومَنْ فَقَدَ من صاحبهِ صُحْبَةَ المروءةِ ووَقارَها وجلالَها أَحْدثَ ذلكَ له في قلبِهِ رِقَّةَ شَأْنٍ وخِفَّةَ منزلة.

لا تلْتَمِسْ غَلَبَةَ صاحبك والظَّفَرَ عليهِ بكُلِّ كلمةٍ ورأْيٍ، ولا تَجْتَرِئَنَّ على تَقْرِيعِهِ[1] بِظَفرِكَ إذا استبانَ، وحُجَّتِكَ إذا وَضَحَتْ؛ فإنَّ أقواماً قد يَحْمِلُهُمْ حُبُّ الغَلَبَةِ وسَفَهُ الرأي في ذلك على أَنْ يَتَعَقَّبُوا الكلِمَةَ بعدَ ما تُنسَى، فَيَلْتَمِسُوا فيها الحُجَّةَ، ثم يَسْتَطِيلُوا بها على الأَصْحابِ، وذلك ضَعْفٌ في العقلِ ولؤْمٌ في الأخلاقِ.

لا يُعْجِبَنَّكَ إِكْرامُ مَنْ يُكْرِمُكَ لمنزلةٍ أو سُلطان؛ فإنَّ السُّلطانَ أَوشكُ أُمورِ الدُّنيا زَوالاً. ولا يُعَجِبَنَّكَ إكرامُ من يُكْرِمُكَ للمالِ؛ فإنه هو الذي يتلُو السلطانَ في سُرْعَةِ الزَّوالِ. ولا يُعْجِبَنَّكَ إكرامُهُمْ إياك للنَّسبِ، فإنَّ الأَنسابَ أقلُّ مناقِبِ الخيرِ غناءً عَنْ أَهلِها في الدّينِ والدُّنيا.

ولكنْ إذا أُكْرِمْتَ على دينٍ أو مُرُوءَةٍ فذلك فَلْيُعْجِبْكَ؛ فَإِنَّ

(١) تقريعه: من قَرَّعَ، توبيخه وتعنيفه.

المُروءَةَ لا تُزَايِلُكَ[1] في الدُّنيا، وإِنَّ الدِّينَ لا يُزَايِلُكَ في الآخِرةِ.

اعلمْ أنَّ الجُبْنَ مَقْتَلةٌ، وأنَّ الحِرْصَ مَحْرَمةٌ.

فانظُرْ فيما رأَيتَ أو سمعتَ: أَمَنْ قُتِلَ في القتالِ مُقْبِلاً أكثرُ، أَمْ مَنْ قُتِلَ مُدْبِراً؟ وانظُرْ: أَمَنْ يَطْلُبُ إليكَ بالإِجمالِ والتكرّمِ أحَقُّ أَنْ تَسْخُوَ إليه نفسُك بِطَلِبَتِهِ؟ أَمْ مَنْ يَطْلُبُ إليك بالشَّرَهِ.

اِعلمْ أَنَّه ليس كلُّ مَنْ كانَ لكَ فيه هَوًى، فذَكَرَهُ ذاكِرٌ بِسُوءٍ وذكرتَهُ أَنتَ بخيرٍ، يَنْفَعُهُ ذلكَ، بَلْ عسى أَنْ يَضُرَّهُ فلا يَسْتَخِفَّنَّكَ ذِكْرُ أَحدٍ من صديقٍ أو عدوٍّ إِلّا في موطِنِ دفعٍ أَو محاماةٍ، فإِنَّ صديقَكَ ـ إِذا وَثِقَ بكَ في مَواطِنِ المُحاماةِ ـ لم يَحْفَلْ بما تركتَ مما سوى ذلك، ولم يكنْ له عليكَ سبيلُ لائِمةٍ.

وإِنَّ الأَحْزَم في أمرِ عدوِّكَ أَلَّا تَذْكُرَهُ إِلّا حَيْثُ يضُرُّهُ، وألَّا تَعُدَّ يسيرَ الضَّرِّ له ضرّاً.

اعلمْ أَنّ الرجلَ قد يكونُ حليماً فَيَحْمِلُهُ الحِرْصُ على أَنْ يُقال جليدٌ والمخافَةُ أَنْ يقالَ مَهينٌ على أنْ يَتَكَلَّفَ الجَهْلَ.

---

(١) لا تزايلك: من زال، لا تفارقك.

وقد يكونُ الرجلُ زَمِيتاً[١] فيحملُهُ الحِرْصُ على أَنْ يُقالَ لَسِنٌ والْمَخَافَةُ مِنْ أَنْ يُقالَ عَيٌّ على أَنْ يقولَ في غيرِ موضِعِهِ، فيكون هَذَراً.

فاعرِفْ هذا وأشباهَهُ، واحْتَرِسْ منهُ كُلِّهِ.

إذا بَدَهَكَ[٢] أَمرانِ لا تدري أَيُّهُما أصْوَبُ، فانظر أيُّهمَا أَقْرَبُ إلى هَواكَ فخالِفْهُ؛ فإِنَّ أكثرَ الصوابِ في خلافِ الهَوَى.

لِيَجْتَمِعْ في قلبِك الافتقارُ إلى الناسِ والاستغناءُ عَنْهُمْ، فيكونَ افتقارُكَ إليهم في لِينِ كلمتِكَ وحُسْنِ بِشْرِكَ ويكونَ اسْتِغْنَاؤُكَ عنهم في نَزَاهَةِ عِرضِكَ وبقاءِ عِزِّكَ.

لا تُجالِسْ امْرأً بغيرِ طريقتِهِ، فإنّكَ إِنْ أَردتَ لقاءَ الجاهلِ بالعلمِ، والجافي بالفِقْهِ[٣]، والعَيّ بالبيانِ، لم تزدْ عَلى أَنْ تُضيعَ عقلَكَ وتُؤذيَ جليسَكَ، بحمْلِكَ عليه ثقَلَ ما لا يَعْرِفُ، وغَمِّكَ إِيّاهُ بمثلِ ما يَغْتَمُّ به الرجلُ الفصيحُ من مُخاطَبَةِ الأَعْجَمِيِّ[٤] الذي لا يَفْقَهُ.

---

(١) الزميت: من زَمَتَ، الوقور، الجليل.

(٢) يقال بدهه بكذا: من بَدَهَ، استقبله به أو بدأه به أو فاجأه.

(٣) والجافي: من الجفا وهو الغلظ والفظاظة والفعل جَفّ. والفقه: من فَقِهَ العلم بالشيء والفهم له.

(٤) الأعجمي والأعجم: من عجم الذي في لسانه عجمة ولكنة.

واعلم أَنَّهُ ليس شيءٌ من علمٍ تَذْكُرُهُ عندَ غيرِ أَهلِهِ إلّا عادَوْهُ، ونَصَبُوا له، ونَقَضُوهُ عليك، وأَبْغَضُوكَ عَلَيْهِ، وَحَرَصُوا على أنْ يجعلوهُ جَهْلاً؛ حتَّى إنَّ كثيراً مِنَ اللَّهوِ واللَّعِبِ الّذي هو أَخَفُّ الأَشياءِ عَلَى النَّاسِ، ليَحْضُرُهُ مَنْ لا يعرِفُهُ، فيَثْقُلُ عليه ويَغْتَمُّ بهِ.

لِيَعْلَمْ صاحبُك أَنّكَ حَدِبٌ على صاحبِهِ، وإيّاك إنْ عاشَرَكَ امرؤٌ ورافَقَك أَنْ لا يَرَى منك بأَحدٍ مِنْ أَصحابِهِ وإخوانهِ وأخذانِهِ رأْفَةً فإن ذلك يأْخُذُ مِنَ القلوبِ مَأْخذاً، وإنَّ لُطْفَكَ بصاحبِ صاحبِك أحسنُ عندَهُ موقِعاً من لُطْفِكَ بهِ في نفسِهِ.

إتَّقِ الفرحَ عندَ المحزونِ، واعلم أَنّه يَحْقِدُ على المُنْطَلِقِ[1] ويَشْكُرُ للمُكْتَئِبِ. واعْلَمْ أنكَ ستسمَعُ مِنْ جلسائِك الرأيَ والحديثَ تُنْكِرُهُ وتُسَخِّفُهُ وتَسْتَشْنِعُهُ مِنَ المُتَحَدِّثِ عن نفسِهِ أَوْ عَنْ غيرِهِ، فلا يَكُونَنَّ منك التَّكْذيبُ ولا التَّسْخيفُ لِشَيءٍ مِمَّا يأْتي بِهِ جليسُكَ، ولا يُجَرِّئَنَّكَ على ذلكَ أَنْ تقولَ: إنّما حَدَّثَ عَنْ غيرِهِ؛ فإنَّ كلَّ مردودٍ عليه سَيَمْتَعِضُ من الردِّ. وإنْ كان في القومِ مَنْ تَكْرَهُ أَنْ يستقرَّ في قلبِه ذلكَ القولُ لخطإٍ تَخافُ أَنْ يَعْقِدَ عليهِ، أَوْ مَضَرَّةٍ تَخْشاها على أَحدٍ، فإنَّكَ قادرٌ

(١) المنطلق: من طَلُقَ، من انطلاق الوجه، وهو انبساطه بالبشر والسرور.

على أن تَنْقُضَ ذلك في سِرٍّ، فيكونَ ذلك أَيْسَرَ للنَّقْضِ وأَبعدَ للبغضَةِ.

واعلمْ أَنَّ البغضةَ خوفٌ، والمودَّةَ أَمْنٌ، فاسْتَكْثِرْ من المودَّةِ صامتاً، فإِنَّ الصَّمْتَ يَدْعُوها إليكَ؛ وناطقاً بالحُسْنَى، فإِنَّ المنطقَ الحَسَنَ يَزِيدُ في وُدِّ الصَّديقِ ويَسُلُّ سخيمةَ الوَغْرِ[١].

واعلَمْ أَنَّ خَفْضَ الصوتِ وسكونَ الريح ومشيَ القَصْدِ من دَواعِي المودَّةِ، إذا لم يُخالِطْ ذلك بأْوٌ[٢] ولا عُجْبٌ. أَمَّا العُجْبُ فهو مِنْ دواعي الْمَقْتِ والشَّنآنِ[٣].

تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ، كما تتعلَّمُ حُسنَ الكلامِ. ومن حُسْنِ الاستماعِ إمهالُ المتَكَلِّمِ حتَّى يقضيَ حديثَهُ، وقِلّةُ التَّلفُّتِ إلى الجوابِ، والإقبالُ بالوجهِ والنَّظرِ إلى المتَكلِّمِ، والوعيُ لِمَا يقولُ.

واعلمْ أَنَّ المستشارَ ليس بكفيلٍ، وأَنَّ الرأْيَ ليس بمضمُونٍ، بلِ الرأْيُ كلُّهُ غَرَرٌ[٤]، لأَنَّ أُمورَ الدنيا ليس شيءٌ

(١) سخيمة الوغر: من سَخُمَ والوغر من وَغَرَ، الحقد والضغن والعداوة.
(٢) البأو: من بأى، الفخر بالنفس.
(٣) الشنآن: من شَنَأَ، البغض. والشانئ: المبغض.
(٤) الغرر: من غَرَّ، الخداع.

منها بثقة، ولأَنَّهُ ليسَ شيءٌ مِنْ أمرها يُدْرِكُهُ الحازمُ إلّا وقد يدْرِكُهُ العاجِزُ، بل رُبَّما أعيا الحَزَمَةَ ما أمْكَنَ العَجَزَةَ. فإذا أَشارَ عليكَ صاحبُك برأيٍ فلم تجدْ عاقبتَهُ على ما كنتَ تَأْمُلُ فلا تجعلْ ذلك عليه لَوْماً وعَذْلاً بأَنْ تقولَ: أَنتَ فعلتَ هذا بي، وأنتَ أَمرتَني، ولولا أنتَ لم أفعَلْ، ولا جَرَمَ لا أُطِيعُكَ في شيءٍ بعدَها. فإنَّ هذا كلَّه ضجرٌ ولؤمٌ وخِفَّةٌ.

وإنْ كنتَ أنتَ المُشيرَ، فَعَمِلَ برأْيك أو تَرَكَهُ، فَبَدا صوابُك، فلا تمنَّ بهِ ولا تُكْثِرَنَّ ذكرَهُ، إنْ كان فيه نَجاحٌ، ولا تَلُمْهُ عليهِ إنْ كان استبانَ في ترْكه ضَرَراً، بأَنْ تقولَ: أَلم أَقُلْ؟! أَلَمْ أفعلْ؟! فإنَّ هذا مُجانِبٌ لأدب الحُكماءِ.

اعلمْ ـ فيما تُكَلِّمُ به صاحبَكَ ـ أَنَّ مما يُهَجِّن صوابَ ما تأْتي به، وَيُذْهِبُ بهجَتَهُ، ويُزْرِي بقَبُولِهِ، عَجَلَتَكَ في ذلك قبلَ أَنْ يُفْضِيَ إليك بذاتِ نفسِهِ.

ومِنَ الأخلاقِ السيئةِ على كلِّ حالٍ مُغالَبَةُ الرجلِ على كلامِهِ، والاعتراضُ فيه، والقَطْعُ للحديثِ.

ومن الأخلاقِ التي أَنتَ جديرٌ بتركِها، إذا حَدَّثَ الرجلُ حديثاً تعرفُهُ، أَلّا تسابقَهُ إليهِ، وتفتحَهُ عليهِ، وتُشَارِكَهُ فيهِ، حتى كأَنَكَ تُظْهرُ للناسِ بأَنَّكَ تريدُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنكَ تَعْلَمُ مِنْ مثلِ الذي يَعْلَمُ؛ وما عليكَ أَنْ تُهَنِّئَهُ بذلك وتُفْرده بهِ. وهذا

البابُ مِنْ أبوابِ البُخْلِ، وأَبوابُهُ الغامضةُ كثيرةٌ.

وإذا كنتَ في قومٍ ليسوا بُلغاءَ ولا فُصَحاءَ، فدَعِ التَّطاوُلَ عليهمْ في البلاغةِ والفَصاحةِ.

اعلمْ أَنَّ بعضَ شِدَّةِ الحَذَرِ عَوْنٌ عليكَ فيما تَحْذَرُ، وأَنَّ بعضَ شِدَّةِ الاتِّقاءِ مِمَّا يدعُو إليك ما تَتَّقِي.

إِنْ رأَيتَ نفسَكَ تصاغرَتْ إليها الدُّنيا أَو دَعَتْكَ إِلى الزَّهادَةِ فيها، على حالِ تَعذرٍ منها عليك، فلا يَغُرَّنَّكَ ذلك مِنْ نفسِكَ على تلك الحالِ، فإنّها ليسَتْ بِزهادةٍ، ولكنَّها ضَجَرٌ واسْتِخْذاءٌ، وتغيّرُ نفسٍ عندَما أعْجَزَكَ مِنَ الدُّنيا، وغَضَبٌ منك عليها لِمَا التوَى[1] عليك منها. ولو تَمَّمْتَ على رَفْضها، وأَمْسَكْتَ عن طَلَبِها، أوْشَكْتَ أَنْ ترى من نفسِكَ مِنَ الضَّجَرِ والجَزَعِ أشدَّ من ضَجَرِكَ الأولِ بأضعافٍ، ولكنْ إذا دَعَتْكَ نفسُك إِلى رَفْضِ الدُّنيا ـ وهي مقبلة عليكَ ـ فأَسْرِعْ إِلى إِجابَتِها.

إعرِفْ عوراتِكَ، وإياك أَنْ تُعَرِّض بأحدٍ فيما ضارعها! وإذا ذُكِرَتْ من أحدٍ خليقةٌ فلا تناضلْ عنهُ مناضَلَةَ المُدافِعِ عن نفسِهِ، المُصَغِّرِ لما يُصِيبُ الناسُ منه فَتُتَّهَم بمثلِها. ولا تُلِحَّ كل الإلحاحِ ولْيَكُنْ ما كانَ منكَ من

(١) التوى: من لَوِيَ، صعب عليك الوصول إليه.

غيرِ احتلاطٍ فإنّ الاحتلاطَ[١] من مُحَقِّقاتِ الرَّيْبِ.

إذا كنتَ في جماعةِ قومٍ أَبداً، فلا تَعُمَّنَّ جيلاً من الناسِ أَوْ أُمَّةً من الأمم بشَتْمٍ ولا ذَمٍّ، فإنّك لا تَدْرِي لعلَّكَ تتناولُ بعضَ أعراضِ جلسائِكَ، ولا تعلمُ. ولا تَذُمَّنَّ مع ذلك اسْماً من الرجالِ أو النِّساءِ بأَنْ تقول: إنَّ هذا لَقَبِيحٌ من الأسماءِ؛ فإنّك لا تَدْرِي، لعلَّ ذلك مُوافِقٌ لبعضِ جلسَائِكِ، في بعضِ أَسماءِ الأهلينَ والحَرَمِ[٢]. ولا تَسْتَصْغِرَنَّ مِنْ هذا شيئاً، فكلهُ يَجْرَحُ في القلبِ، وجرْحُ اللِّسانِ أَشَدُّ من جرْحِ اليَدِ.

اعلمْ أَنَّ الناسَ يَخْدَعُونَ أنفسَهُم بالتعريضِ والتوقِيعِ بالرجالِ في التماسِ مَثالبِهم ومَساوِيهم ونقيصتِهِمْ، وكلُّ ذلك أَبْيَنُ عندَ سامِعيهِ مِنْ وضَحِ الصُّبْحِ. فلا تَكُونَنَّ من ذلكَ في غُرورٍ، ولا تَجْعَلَنَّ نفسَكَ مِنْ أَهْلِهِ.

واعلمْ أَنَّ مِنْ تَنَكُّبِ الأُمورِ ما يُسَمَّى حَذَراً، ومنه ما يُسمَّى خَوَراً. فإنِ استطعتَ أَنْ يكونَ تَجَنُّبُكَ من الأَمرِ قبلَ مواقعتِكَ إياه، فافعلْ؛ فإنَّ ذلك هو الحَذَر؛ ولا تَنْغَمِسْ فيه ثم تَتَهَيَّبَهُ؛

(١) الاحتلاط: من حلط، هو الاجتهاد في الحلف واليمين؛ وهو المبالغة في الغضب أيضاً.
(٢) الحرم: الحريم.

فإن هذا هو الخَوَر. فإنَّ الحكيمَ لا يخوضُ نهراً حتى يعلمَ مقدارَ قعرِهِ.

وقد رأَينا من سُوءِ المجالسةِ أَنَّ الرجلَ تَثْقُلُ عليهِ النِّعمةُ يَراها بصاحبِهِ، فيكون ما يَتَشَفَّى فيه في تصغيرِ أَمر صاحبِهِ وتكديرِ النِّعمةِ، أَنْ يذكرَ الزوالَ والفسادَ والدُّوَلَ[1] كأَنَّه واعظ. فلا يَخْفَى ذلك على مَنْ يُعْنَى به ولا غيره. ولا يُنَزِّل قولَه بمنزلةِ الموعظةِ، ولكنْ بمنزلةِ الضَّجَرِ بالنِّعمةِ ـ والاغتمامِ لها والاستراحةِ إلى غيرِ رَواحِ.

إِنّي مُخْبِرُكَ عن صاحبٍ كان أعظمَ النَّاسِ في عيني. وكان رأسُ ما أعظمَهُ عندي صِغَرَ الدنيا في عينِهِ. كان خارجاً من سُلطانِ بَطْنِهِ، فلا يَشْتَهِي ما لا يَجِدُ، ولا يُكْثِرُ إِذا وَجَدَ. وكان خارجاً من سلطانِ فَرْجِهِ فلا يدعُو إليه مُرُوءَتَهُ. ولا يَسْتَخِفُّ رأياً ولا بَدَناً. وكان خارجاً من سُلطانِ الجِهالةِ فلا يُقْدِمُ إِلّا على ثقةٍ أَوْ مَنْفَعةٍ. وكان أكثرَ دهرِه صامتاً فإِذا قالَ بذَّ القائلين.

كان يُرى مُتَضَعَّفاً مُسْتَضْعَفاً، فإِذا جاءَ الجِدُّ فهو الليثُ عادِياً.

---

(١) الدُّوَلَ: من دَالَ: دار وانقلب من حالٍ إلى حال.

وكانَ لا يدخُلُ في دَعْوى، ولا يَشْرك في رأي، ولا يُدْلي بحُجَّةٍ، حتى يَجِدَ قاضياً عَدْلاً وشُهُوداً عُدُولاً.

وكان لا يَلُومُ أَحداً عَلى ما قَدْ يَكُونُ العُذْرُ في مثلِهِ حتَّى يَعْلَمَ ما اعْتِذَارُهُ.

وكان لا يشكُو وَجَعاً إِلّا إِلى مَنْ يَرجُو عندَهُ البُرْءَ، ولا يَصْحَبُ إِلّا مَنْ يَرْجُو عندَهُ النَّصيحة.

وكان لا يَتَبَرَّمُ، ولا يَتَسَخَّطُ ولا يَتَشَهَّى ولا يَتَشَكَّى، ولا يَنْتَقِمُ من الوَلِيّ، ولا يَغْفَلُ عنِ العَدُوِّ، ولا يَخُصُّ نفسَهُ دونَ إِخوانِهِ بِشيءٍ مِنِ اهتِمامِهِ وحِيلَتِهِ وقُوَّتِهِ.

فَعَلَيْكَ بهذِهِ الأَخلاقِ إِنْ أَطَقْتَ[1] ـ ولَنْ تُطِيقَ ولكِنَّ أَخْذَ القليلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الجميعِ، وباللَّه التَّوفِيقُ.

(١) أطقت: من أطاق، إن قدرت على الشيء.

فهرس المحتويات

الأدب الصغير ٥
قال ابن المقفع ٧
الأدب الكبير ٥٣
مدخل الكتاب ٥٥
أصول الأدب في الدين ٥٨
وصف الحذر إذا تقلدت شيئاً من أمر السلطان وغيره ٦١
المشورة ٦٣
رضى الناس ٦٤
موعظة جامعة ٦٦
أقسام الملك ٦٨
الدولة الجديدة ٦٩
الأصحاب غير الثقات ٧١
صحبة السلطان ٧٦
المقالة الثانية: معاملة الصديق ٩٣
فهرس المحتويات ١٢٧